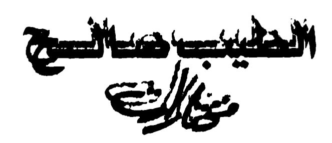
الطيّب صالح



٩

خواطر الترحال





الطيب صالح

مختارات

٩

خواطر الترحال



TRAVEL IMPRESSIONS
By
El Tayeb Salih

تحرير: د. حسن أبشر الطيب
محمود صالح عثمان صالح

First Published in June 2005

BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb • www.elrayyes-books.com
• www.elrayyesbooks.com

ISBN 97 89953 21197-8

تصميم الغلاف: محمد حمادة
الطبعة الأولى: حزيران/يونيو ٢٠٠٥

الخرطوم عاصمة الثقافة العربية
٢٠٠٥

الإهداء

إلى صديقيّ الصحافيين المرموقين الأستاذ عثمان العمير والأستاذ عبد الرحمن الراشد اللذين كان لهما الفضل أنني كتبت هذه المقالات في مجلة محلية.

وإلى صديقيّ الشاعر والصحافي البارع الأستاذ عبد القادر حميدة والصحافي البارز الأستاذ حازم هاشم من أصدقائي في القاهرة.

المحتويات

١

ليتني كنت شاعراً مثل غازي القصيبي. إذاً لقلت شعراً في هذه المناسبة. ما أسرع ما تمرُّ الأعوام. تغمّض وتُفتّح فإذا عشرة أعوام، فإذا عشرون عاماً من عمرك قد ذهبت، لا تدري إلى أين وكيف ذهبت.

ويخيّل إليك أنك أنتَ أنتَ. ولكن هيهات. إنني أذكر قصيدته الجميلة بمناسبة زواج ابنته. كان يتحدّث بلسان الآباء جميعاً. كان سعيداً وكان حزيناً، وهو يكون في أحسن حالاته حين يتأرجح بين السعادة والحزن. الفرح لأن البنت قد كبرت وتزوّجت، ولكن ماذا حدث لسنوات العمر؟ الطفلة شبّت عن الطوق وذهبت إلى كنف رجل آخر. ولعمري إن في مسرّات الحياة المشوبة بالأحزان، ما يُغني الشعراء، خاصة الكبار منهم، عن مزالق الهجاء!

كنت وزوجتي نحضر حفل التخرُّج في كلية «قولْد سمثْ» التابعة لجامعة لندن، لأن ابنتنا الكبرى (زينب) كانت بين المتخرجين. نادوا على اسمها فخرجت من بين صفوف الطلبة والطالبات في عباءتها الجامعية السوداء، والقبّعة المسطّحة ذات الذّيْل الذي يتدلّى على الجانب. الفرح، نعم، كما أحسّ غازي القصيبي. مشتْ على المنصة واثقة الخطو، فيها طيبة السودانيين وعناد الإسكتلنديين، صافحها رئيس الجامعة وابتسم لها وابتسمت له. يا سبحان الله. هل هذه طفلة الأمس التي نعرفها؟

كان بين المتخرجين أيضاً ميسون ناصر، ابنة صديقنا نديم ناصر وزوجته مديحة المدْفعي. كنا زملاء في هيئة الإذاعة البريطانية. منذ متى؟ ما أسرع ما تمرّ الأعوام.

إنما ليس هذا موضوع حديثي. كنتُ أفكّر طوال الاحتفال الذي استمر نحو ساعتين، أفكّر وأقارن وأسائل نفسي، لماذا هؤلاء القوم على ما هم عليه؟ ولماذا نحن على ما نحن عليه؟ ما هو الذي عندهم وليس عندنا؟ الذكاء؟ نحن ما شاء الله لا ينقصنا الذكاء. القدرة على العمل؟ في تاريخنا أدلّة كافية على قدْر استطاعتنا. الطموح؟ لعلّنا أكثر طموحاً مما يجب. الحكمة؟ ربما يكون هذا. لعلّهم أكثر منّا حكمة.

بدأ الاحتفال بأنْ عزفت الأبواق من موسيقى «مانْدلْ»، وسارت المواكب، موكباً في أثر موكب. موكب الرئيس. ثم مواكب العُمدْ. عُمدة «لويشام». عمدة «برُمْلي». عُمدة «كرويْدُن». عمدة «لامْبثْ». عمدة «بكْسلي». كل هذه مناطق في لندن لها صلة قديمة بهذه الكلية التي أنشئت أصلاً لخدمتها. مواكب تثير خيالك

وتدهش سمعك وبصرك. الموسيقى تصدح، وكل عُمدة في زيّه المميّز، أمامه ووراءه حاشية يحملون شارات سلطانه العريقة التي توارثوها منذ قرون. كل شارة لها مغزى في ذاكرة الشعب، وكل خطوة لها معنى، فكأن الزمان الذي ذهب لم يذهب سُدى، وكأن الماضي، تعاد صياغته في الحاضر ويمتد إلى المستقبل.

الحكمة؟ نعم، لعلهم أكثر حكمة منّا.

ساروا بتؤدة محسوبة على أنغام موسيقى «مانْدل» موكباً في أثر موكب. موكب الأساتذة وموكب الزملاء الفخريين. وارتقوا صفّاً صفّاً فوق المنصة.

تحدّث أولاً عميد الكلية «برفّسر آندرو رذَرْفورد» بلكنة إسكتلندية واضحة، وأنا من زمن أحمل إعجاباً خاصاً بالإسكتلنديين. ناظر مدرستنا في وادي سيّدنا «مستر فارْكسُنْ لانْج» كان إسكتلندياً. كان مربياً فاضلاً. يعجبني فيهم أنهم قبائل مثل العرب، وأن طبعهم فيه سماحة مثل العرب، وهم كرماء عكس ما يروّج عنهم الإنجليز، وموسيقى «القِرَب» عندهم مليئة بالشجن خلاف موسيقى بقية أوروبا. وقد أخذها عنهم، وأجاد فيها الجيش السوداني والجيش الأردني. وكانت فرقة الموسيقى في الجيش السوداني يُضرب بها المثل، تعزف موسيقى القِرَب كما تُعزف في اسكتلندا. لا بد أنهم بَعثروها الآن، كما خرّبوا سكة وجامعة الخرطوم والخدمة المدنية، وكسّروا محطة السكة الحديدية في الخرطوم، وسوق الخضار وسوق اللحوم، بحجة أنها من مخلّفات الاستعمار. متى يفهم هؤلاء القوم أن الأشياء الحسنة التي تركها الاستعمار هي ملك للشعب؟

سير «والترْ سكوت» صاحب روايات «ويفرلي» إسكتلندي، والشاعر العبقري الصعلوك «روبرت بيرنْزْ» إسكتلندي. إنه صاحب الأبيات الشهيرة التي أصبحت أغنية ذائعة:

إذا إنسانٌ
قابل إنساناً
سائراً في حقل الشّعير،
إذا إنسانٌ
كلّم إنساناً
فهل لا بُدّ أن يبكي ذلك الإنسان؟
كلّ البنات يغازلْنني بعيونهن،
وأنا أسير في حقل الشعير.

ولا يخفى، أن الإنسان الذي كلّمه الإنسان، ليس إنساناً بل إنسانة. وقد اقتبس الكاتب الأمريكي «أر.دي. سالنْجر» من هذه الأبيات، عنوان روايته الشهيرة «صياد في حقل الشعير». وقد ترجم بعض إخواننا كلمة Rye إلى «شوفان». وأنا شخصياً لا أعرف «الشوفان» ولم أره، وما أظن إلّا أنه «الشعير»، فكلّه عند العرب «شعير».

ذاك، و«روبرت لوي ستيفنْسنْ» صاحب رواية «جزيرة الكنز» إسكتلندي، و«هارولدْ ماكْملان» آخر دُهاة حكّام بريطانيا إسكتلندي. وفوق هذا وذاك «توماس كارْلايلْ» الكاتب الشجاع الذي أنصف نبيّنا الكريم في زمن عزَّ فيه الإنصاف، إسكتلندي.

هكذا أحببت الإسكتلنديين إلى حدّ أن صار لي عندهم صلة ورحم، فهل أنا في ذا يال همْدان ظالمُ؟

بلادهم ذات طبيعة ساحرة، تتخلّلها البحيرات والخلجان التي يسمّونها «لُخز» واحدها «لُخ» فهم ينطقون حرف «الخاء» مثل العرب. وقد كانوا فقراء مُدْقعين إلى عهد قريب، حتى وُجد عندهم البترول والغاز في بحر الشمال، لذلك هاجروا زُمراً وتفرقوا في البلاد فشبَّ لديهم حنين قوي إلى موطنهم الأصلي يظهر في أغانيهم كما عند اللبنانيين. وفي طبعهم ميْلٌ عظيم إلى العدْل الاجتماعي ومناصرة المظلومين، وغالبيتهم العظمى تؤيد حزب العمّال.

حاربوا الإنجليز حقباً قبل أن يتّحدوا معهم، وعاصمتهم «أدنبرا» بقلعتها الضخمة ومعمار مبانيها الذي يمتُّ إلى القارة الأوروبية أكثر مما يمت إلى الجزيرة البريطانية، تشهد على صلابتهم وقوة مراسهم.

جامعتهم الأولى، في «سانت آندروز» لا تقل عراقة عن «أكسفورد» أو «كيمبردْج»، وصحيفتهم الـ «سكتْسمان» أكثر صحف بريطانيا رصانة، وأكثرها عدْلاً وإنصافاً في النظر إلى شؤون العرب.

٢

من العادات الحسنة عند الإنجليز ـ وكذلك بقية الأوروبيين ـ أن رغبتهم في البذل وعمل الخير، تتحرّك في مثل هذه الأيام، في محطات السكك الحديدية، وفي الشوارع والميادين العامة، وأمام أبواب المحلات التجارية، وأحياناً يطرقون أبواب البيوت ـ جوقات من المنشدين، صبْية وبنات، ومعهم موجِّهون من الرجال والنساء، يعترضون المارة بترانيمهم الجميلة ـ بعضهم لم يتجاوز السابعة من العمر، وكل واحد أو واحدة، يحمل علبة تضع فيها ما تجود به نفسك.

وجوه غضّة، وعيون مُشعّة، وأصوات بريئة صافية، يجمعون التبرعات لعمل الخير. ملاجىء العجزة، ومآوي المشرّدين. جمعيات مكافحة الخمور والمخدرات. البحوث الطبيّة وإنقاذ المستشفيات المهددة بالإغلاق. ضحايا الحروب والمجاعات والكوارث الطبيعية.

«في غزّ الشتاء القاتم
أخذت الرياح الثلجية تُولول،
الأرض صلبة مثل الفولاذ،
والماء جامد كالحجر.
الثلج يسقط،
ثلجٌ فوق ثلج فوق ثلج».

يحبّون أن ينزل الثلج في عيد الميلاد، ويقولون (عيد ميلاد أبيض). ولعله لا يسقط هذا العام، فالشمس تشرق، وقد خدعت بعض النباتات فأزهرت قبل أوانها. والأبيات من ترنيمة للشاعرة (كرسْتينا روزتّي - ١٨٣٠ - ١٨٩٤)، أخت الشاعر (دانتي قابرايلْ روزتّي)، وأشهر شاعرات العصر الفكتوري.

إنما هذه الترانيم، صنعها في الغالب، فقراء الشعب بطريقة عفوية. تعبّر عن إحساسهم الديني، وهو عندهم أعمق مما هو عند الأغنياء، ولا تخلو من المرارة، والوخز للطبقات المحظوظة.

كل ذلك اختفى بمرور الأيام، وتغيّر الأحوال، ولم يبق إلّا الجانب الروحي الذي تراه أوْضح ما يكون في وجوه هؤلاء الأطفال. يُغنّون للمثل الأعلى للطفولة في خيالهم، ويجمعون التبرعات لأطفال مثلهم، في بلاد بعيدة لم يروْها بأعينهم.

وُلد الطفل في حظيرة أغنام، في مذوَد، كما تزعم روايتهم، لأن السيدة البتول عليها السلام لم تجد مكاناً في الخان. ولد في بيت لحم من أعمال بيت المقدس. رأى الرّعاة النجم، فاتّبعوه، ووضعوا هداياهم من الحملان بين يدي الطفل. ورأى الحكماءُ الملوك الثلاثة

النجم حتى أتوا الوليد في الحظيرة، فوضعوا عنده هداياهم من المرّ واللّبان والبخور والذهب والفضة. هكذا تقول روايتهم:

«ماذا أستطيع أن أُهديه
وأنا فقير ليس عندي شيء
لو كنت راعياً كنتُ أهديته حملاً
ولو كنتُ من الحكماء الثلاثة
كنت أهديته كما يجب
إنما يا للأسف، ماذا أستطيع أنا أن أُعطيه؟
سوف أعطيه قلبي».

هكذا فعلت أوروبا مع السيد المسيح عليه السلام. جعلوه رمزاً يناسب مزاجهم وظروفهم. وُلد في عالم الشرق الدافىء المضيء. وكان هو نفسه ضوءاً. أخذوه رمزاً، وخلطوه بما عرفوا من رموزهم القديمة. جعلوا ميلاده في عزّ الشتاء، لأنهم كانوا قبل أن يعتنقوا المسيحية، يحتفلون في هذا الوقت بالرّقص والغناء والولائم. يبدّدون كآبة الشتاء، ويدفعون الخوف من المجهول، ويملأون ذلك المفْصل الغامض، بين العام المُنصرم والعام الوليد، بالصخب وافتعال الفرح.

سوف تمتلىء الكنائس بالمصلّين في هذا الموسم، في بلاد أكثر من ثمانين بالمائة من أهلها لا يدخلون الكنيسة طوال العام. يرسلون بطاقات عيد الميلاد لأناس لا يتصلون بهم عادة، وتتجمع أشتات الأسر المبعثرة.

يجتمعون حول غداء يوم الكريشماس. كانوا قبل أن يعرفوا الديك الرومي، يولمون بالوز والبط. يلي ذلك حلوى عيد الميلاد التي

يصنعونها من الزّبيب والتوابل. يسرفون في الأكل والشراب والضحك.

بعد الغداء يأخذون الهدايا من بين أغصان شجرة عيد الميلاد، ينزعون عنها في ضوضاء الأغلفة الجميلة الملوّنة، الأطفال خاصة، والكبار يعودون أطفالاً.

شجرة عيد الميلاد هي أيضاً تقليد جديد عندهم. منذ العهد الفكتوري. ويقال إن الأمير (ألبرت) زوج الملكة فكتوريا هو أول من فعل ذلك. وهي تكون إما شجرة صغيرة لم تكبر بعد، أو فرعاً من شجرة، من النوع الهرمي المخروط، الذي يظل مخضراً صيفاً وشتاء.

يلفّون غصونها بأشرطة ملوّنة، ويضيئونها بثريات كهربية صغيرة مختلفة الألوان، ويضعونها في الغالب عند النافذة بحيث يراها السائر في الطريق. وهو بالفعل منظر جذاب، أن تكون الأرض مغطاة بالجليد، والظلام دامس، وتنظر فترى هذه الأضواء الجميلة تلمع من نوافذ البيوت.

يكون الأطفال قد استيقظوا مبكّرين في الصباح، ووجد كل واحد منهم كيساً مملوءاً بالهدايا، يقولون لهم أن أباهم عيد الميلاد (فاذر كرسماس) قد تركها لهم. يدخل خلسة بعد منتصف الليل من فتحة المدخنة.

بالليل يجتمعون أمام التلفزيون. تغلب عليه في هذا الموسم قصص الخيال والفكاهة والرسوم المتحرّكة، مثل (سنو وايت والأقزام السبعة) و(الأميرة النائمة) و(توم آند جري). وهو موسم لقصص (شارلز

دكنز) خاصة قصّته (ترنيمة عيد الميلاد) التي يتحول فيها (سكروج) البخيل إلى إنسان كريم رحيم بفضل معجزة عيد الميلاد.

يعطون أكثر في هذا الموسم. يدفعون أكثر للعامل الذي ينظف زجاج النوافذ، والزبّال، والذي ينظّف المدخنة، وبائع اللبن، والصبي الذي يحضر الصحف. ويجودون أيضاً بالبنس والبنسين، والجنيه والجنيهين، لأطفال العالم الفقراء في البلاد البعيدة، ومن بينهم أطفال المسلمين في البوسنة وبانقلادش والصومال وأفغانستان.. والسودان.

«عيد الميلاد قد أقبل،
والوزُّ قد اكتنز بالشحم،
ضعْ من فضلك بنْساً
في قُبّعة الرجل العجوز
إذا لم يكن عندك بِنْس،
فنصف بنس يكفي.
وإنْ لم يكن عندك نصف بنس،
فعليك بركات الله والسّلام».

٣

تلك السيدة الفاضلة (مسز باربرا بريْ)، تعيش في باريس منذ أكثر من ثلاثين عاماً عيشة بسيطة متقشفة، أشرتُ إليها عدة مرات، في معرض حديثي عن (منسي) رحمه الله. كانت أستاذته في جامعة الإسكندرية، ثم تزاملنا في هيئة الإذاعة البريطانية، وتوثقت صلاتنا إلى اليوم. وهي ناقدة معروفة، كما تُعدّ من أهم المترجمين من اللغة الفرنسية إلى اللغة الإنجليزية.

ترجمت مؤخراً، بالاشتراك مع الكاتب الأمريكي (فرانسس ستيقْمولر) الرسائل الكاملة المتبادلة بين (جورج صاند) و(قوستاف فلوبير).

(جورج صاند)، كما هو معروف، هو الاسم المستعار للبارونة (أورور دي دودفان) التي كانت من أشهر كاتبات فرنسا في القرن

التاسع عشر. اشتهرت أيضاً بسلوكها المتحرر في شبابها، وغرامياتها المتعددة. أحبها الكاتب (جول صاندو) الذي أخذت منه اسمها المستعار، والشاعر (ألفرد دي موسّيه)، والموسيقار (شوبان)، وكثيرون غيرهم.

رغم أنها تزوّجت وأنجبت، فقد كانت أول عهدها، تتزيى بزي الرجال وتسلك سلوكهم.

كانت تكبر (فلوبير) بسبعة عشر عاماً، وقد جمعت بينهما صداقة إنسانية صرفة، أساسها الإعجاب المتبادل، استمرت حتى وفاة (جورج صاند) عام ١٨٧٦، أي قبل وفاة فلوبير بأربعة أعوام.

كان (فلوبير) من الروائيين العمالقة، وقد اعتُبرت روايته (مدام بوفاري ـ ١٨٥٧) فتحاً في عالم الأدب. وفيما يلي رسالتاهما في أول يوم من عام ١٨٦٩. ويلاحظ أنه يسمّيها (أستاذي العزيز). وكانت هي تناديه (صديقي) و(أخي) و(طفلي):

«كرواسيه ـ ١ كانون الثاني/ يناير ١٨٦٨
الساعة الواحدة من صباح يوم رأس السنة.

لماذا لا أبدأ العام بأن أتمنى لك ولعائلتك سنة طيبة سعيدة، وأكثر من ذلك بكثير؟ هل هي عبارات ممجوجة؟ ربما ـ ولكنها تعجبني.

فلنثرثر إذاً. لا تخافي أنني سوف أقتل نفسي من الإرهاق وكثرة العمل. صحّتي ممتازة. قال لي أحدهم في باريس، أن وجهي نضر مثل وجه فتاة صغيرة. الذين لا يعرفون أسلوب حياتي، يعزون ذلك

إلى هواء الريف النّقي. لكنني لا أكترث لصحتي. أحياناً أعيش على الخبز الجاف، وأتداوى من آلام المعدة، بأن آكل أعسر الأطعمة على الهضم، مثل التفاح الفج واللحوم السمينة ـ الإنسان الفاقد الحكمة مثلي، يجب ألّا يعيش بحكْمة.

أما عن هوسي بكثرة العمل، فذلك مثل الحكّة على الجلد. أحك وأحك، وأصرخ وأصرخ. أحس المتعة والألم في الوقت نفسه. والذي أكتبه ليس هو الذي أريد أن أقوله. الكاتب لا يختار موضوع كتابته. الموضوع يفرض نفسه عليه. هل تنزل عليَّ من السماء فكرة تكون هي الفكرة التي أبحث عنها تماماً؟ هل أستطيع أبداً أن أؤلّف كتاباً أُفْرِغ فيه نفسي بكاملها؟

يبدو لي أحياناً، في لحظة من لحظات الغرور، أنني ألمح شيئاً سوف يتشكّل ليصير رواية. لكن عليَّ قبل ذلك أن أكتب ثلاث روايات أو أربع، ثم أعكف على تلك الرواية التي تتمارى لي، وما تزال غير واضحة المعالم. وعلى أي حال، فلعلّي إذا سرت بهذا البطء، لن أزيد على ثلاث أو أربع روايات.

تتزاحم في رأسي أفكار متضاربة. لذلك هذه الفوضى والتردّد وفقدان الإرادة.

أمّا أن حياة العزلة التي فرضتها على نفسي، هي (نوع من النشوة) ـ أبداً. لكن ماذا أفعل، أنْ يَسْكر الإنسان من الحبر، أحسن من أن يسكر من أي شيء آخر. غادةُ الإلهام، مهما كانت شرسة وسيئة الطبع، فهي أقل ضرراً من المرأة! لا أستطيع أن أجمع بين الاثنتين. لا بد من الاختيار، وقد اخترت منذ وقت طويل.

طبعاً تبقى مشكلة الرغبات الحسيّة، هذه كانت دائماً خاضعة لإرادتي. حتى في ريعان شبابي، دائماً استطعت أن أسيطر على رغباتي. أنا الآن أقترب من الخمسين، ولم تعد النزعات الجسدية تسبّب لي أي صعوبة.

صحيح أن حياتي بهذا الأسلوب حياة مُملّة. أعترف بذلك. توجد أوقات أحسّ فيها بالوحشة والملل. لكنها تقلّ مع تقدّم العمر. وأُصدُقك القول، أن الحياة أصلاً شيء لا يتفق مع مزاجي!

قضيت في باريس ثلاثة أيام، أجمع بعض المعلومات لكتابي. شعرت بالإعياء الشديد مساء الجمعة، فذهبت إلى فراشي في الساعة السابعة مساء. هذا مبلغ سفهي وعربدتي في العاصمة!

وجدت الأخوين (قنكور) في حالة من الهستيريا، من فرط الإعجاب بكتاب عنوانه (قصة حياتي) لكاتبة تدعى (جورج صاند)! إن دلَّ ذلك على شيء فإنه يدل على أن ذوْقهما أفضل من اطلاعهما[1].

وجدت صديقنا (هاريس) شديد الغباء. يقارن بين (فيدو) و(شاتوبريان)، ويقول أن (دون كيشوت) كتاب مُملّ إلخ.

ما أقل الذين يميّزون الأدب الأصيل! معرفة اللغات وعلم الآثار والتاريخ وغير ذلك، قد تُساعد. لكنها لا تكفي. أغلب من يسمّون بالمثقفين، غير قادرين على تذوق الفن. لا يعرفون حتى ما هو الفن. يجذبهم المظهر أكثر من الجوهر. يفضلون العكاز على الساق الحقيقية.

صاحبنا (سانت بوف)[٢] عاد إلى حالته الطبيعية. إنه الآن (متوعّك) دائماً، وليس (مريضاً).

سوف أظل مرابطاً هنا حتى عيد الفصح. أتوقّع أن أفرغ من الكتاب بنهاية شهر أيار/ مايو. ستجدينني عندك في (نوهان) هذا الصيف، ولن يحبسني شيء عن رؤيتك، حتى إن سقطت القنابل.

وأنت، ما أخبار كتابتك؟ ماذا تفعل هذه الأيام يا أستاذي العزيز؟

متى نلتقي؟ هل تحضرين هذا الربيع إلى باريس؟ إنني أقبّلك.

قوستاف فلوبير

نوهان ـ ١ كانون الثاني/ يناير

الساعة الواحدة صباحاً

«فرغت لتوّي من وضع أطفالي في أسرّتهم، وقبّلتهم وتمنيت لهم ليلة سعيدة. أنا متعبة لأنني قضيت الليلة كلها أصنع فستاناً لدمية حفيدتي (أورور).. لكنني لا أريد أن أنام قبل أن أقبلك أنت أيضاً، يا صديقي المحبوب، ويا طفلي الكبير الغالي، أتمنى أن يكون عام ٦٩ عاماً لطيفاً معك، وأن تفرغ من روايتك. أتمنى أن تظل بصحة جيدة وأن تكون دائماً (أنت). هذا أحسن ما يمكن أن أتمناه لك.

إنني أحبك

جورج صاند

(١) أصدرت جورج صاند سيرتها الذاتية «قصة حياتي» عام ١٨٥٥، وأحدثت دوياً في وقتها. لذلك فإن (فلوبير) يلمح إلى أن الأخوين (قنكور) يجهلان ما يحدث في عالم الأدب، وإلّا لكانا قرآ الكتاب من قبل. والأخوان (قنكور) هما صاحبا الجائزة الأدبية المعروفة إلى اليوم.

(٢) (سانت ـ بوف) كان أشهر ناقد في زمانه.

٤

ما أفسدته المطابع

المطبعة، تبدو أحياناً، كأن لها إرادة مستقلة، تُغيّر وتبدّل وتقدّم وتؤخّر. من ذلك، أنني، في مقالة عن كتاب «تباريح التباريح» اقتطفت فقرة يقول فيها أبو عبد الرحمن:

«قلتُ عوضي في التنافس على معارف الخواجات، أنني أَبذّه بتراثيّتي».

فقلبت المطبعة (الذّال) ـ (زاياً)، وصارت الجملة (أبُزّه بتراثيتي). وقد علّمنا أشياخنا أنك حين (تبذ ـ بالذال) إنساناً ما، فأنت إنما تتفوق عليه. وحين (تبزّه ـ بالزاي) أو تبتزُّه شيئاً ما، فإنك تنتزعه منه انتزاعاً. وكانوا يشتطُّون علينا، فقد كنّا نخلط بين (الذّال) و(الزاي) و(الغين) و(القاف)، فكانوا.. يجعلوننا نقلقل (القاف) ونخرج ألسنتنا في (الذّال).

من أولئك الفضلاء، الشيخ حسن أحمد بشاشة عليه رحمة الله. ورّثني هذا، وأيضاً حب البحتري الذي لم يكن يعدل به أحداً من الشعراء. وكتبت في معرض حديثي «نحن أيضاً من ورّاد ذلك المنهل». فإذا المطبعة ـ وهي أعجميّة الصنع لا مراء ـ تقدّم (الرّاء) على (الواو)، فأخذ الكلام مشرعاً آخر، وصار من «رواد ذلك المنهل». لكنه على أي حال تصحيف مُحتمل، فأنت قد (ترتاد) المنهل، وقد (ترِدُه) عدا أن (الورود) أمثل بالماء من (الارتياد).

الذي لم أحتملْه، هو أن المطبعة أفسدت عليَّ المعنى وضيّعت عليَّ ما حسبته حُسن التضمين والإشارة حين قلت «ولو دامت الحرب، ربما لقِحت ـ لام قاف حاء ـ حيال أبي الفوارس حمد الجَاسر، كما لقحت حرب وائل من قبل حيال الحارث بن عُباد».

صنعت المطبعة بدل (لقِح) (لحق ـ لام حاء قاف) وذلك رجعٌ بعيد.

لا يخفى أنني أشير إلى حرب البسوس ـ مع الفارق بين الحربين ـ وموقف الشيخ الجليل الحارث بن عُباد البكري، وقصيدته المدويّة التي يقول فيها:

قرّبا مربَطَ النّعامة منّي
لقحت حربُ وائل عن حيالي

ومعلوم، أنهم كانوا أحياناً يشبهون الحرب بالناقة، إذا لقحت ـ أي حملت ـ وأنتجت ـ من ذلك قول زهير في معلّقته:

فتعرككم عركَ الرّحى بثفالها
وتلقح كشافاً ثم تُنتج فتتئم

وفسروا أن الناقة إذا (لقحت كشافاً) فقد حملت في عامين متتاليين، وذلك نادر، وأندر منه أن تلد توائم.

وهذا النوع من الاستعارة، ليس مستحباً عند الخواجات، يسمونه (تخليط في الصُّور). فقد جعل الحرب رحى، ثم جعلها ناقة. وزهير فعل أفظع من ذلك، إذ إنه مضى فصوّر الحرب أنها امرأة تلد غلمان شؤم، وأنها أرض، تغلّ لهم ما لا تغلُّ لأهلها:

«قرى بالعراق من قفيز ودرهم».

وقد أحسن وأجاد في مذاهب اللغة العربية الشريفة، دع عنك مذاهب الخواجات.

هذا، ومن عجائب حرب البسوس، وكل أمرها عجب، كثرة الشعر الذي خرج منها، والأمثلة التي أنتجتها. وفيم العجب؟ فقد استمرت كما وصفوا، أربعين عاماً، واصطلت بنارها قبائل بعد قبائل. وكان ذلك دأبهم قبل أن يردعهم الدين الحنيف، كما قال شاعرهم:

إذا ما دُعوا لم يسألوا من دعاهمُ
لأية حرب أو بأيّ مكان

ولم يبعُدْ الشاعر التغلبي عمرو بن كلثوم حين قال:

متى ننقلْ إلى قوم رحانا
يكونوا في اللقاء لها طحينا
يكون ثفالُها شرقيَّ نجدٍ
ولُهوتها قضاعةَ أجمعينا

وفسّروا أن (الثِّفال) هي الخرقة التي توضع تحت الرحى ليقع عليها الدقيق المطحون، و(اللهوة) قبضة الحَب التي تُرمى في الرحى للطحن.

هذا ومن الأمثلة التي تواترت إلينا من أيام البسوس قولهم (خلا لك الجو فبيضي واصفري). ورووا أن أول من قاله كليب بن وائل بن ربيعة سيد تغلب، وعظيم وائل بشقيها. صار بعد هزيمة الحميريين في (خزازى) مُهاب الجانب عظيم السلطان. وقد ذكر عمرو بن كلثوم بلاء التغلبيين في موقعة (خزازى) في قوله:

ونحن غداة أوقد في خزازى
رفدنا فوق رفد الرافدينا

هل أوقدوا نار القرى على الجبل، أم أوقدوا نار الحرب، أم أوقدوهما معاً؟

وأجمل من هذا، في ذكر خزازى قول خصمه الشاعر البكري الحارث بن حلزه، في قصيدته الرائعة:

وبعينيك أوقدت هندٌ النارَ
أصيلا تلوّى بها العَلْياءُ

أوقـــدتْـــهـــا بـــين الـــعـــقـــيـــق
فشـخـصـيْن بـعـودٍ كـمـا يـلـوح الـضـيـاءُ
فـــتنورتَ نـــارهـــا مـــن بـــعـــيـــدٍ
بـــخـــزازى هـــيـــهـــات مـــنـــك الـصِّــلاءُ

وبعيد بين النار التي أوقدها عمرو ابن كلثوم، وتلك التي تنورها الحارث اليشكري البكري، لله دره.

٥

رجل من الغرب.. وحضارة من الشرق

كان (جاك بيرك) الذي تُوفي عن خمسة وثمانين عاماً واحداً من الأوروبيين الفضلاء الذين تبحروا في دراسة الحضارة العربية الإسلامية، وأحبّوها وتحمّسوا لها ودافعوا عنها. قادته ظروف مولده ونشأته إلى تعلم اللغة العربية، فلقد وُلد في الجزائر في الرابع من شهر حزيران/ يونيو عام ١٩١٠ لأبوين فرنسيين. وكان والده موظفاً في سلك الإدارة الاستعمارية، إلّا أنه كان يحسن اللغة العربية، وله سمعة علمية في مجال الاستشراق.

ذلك الاهتمام كان نادراً حينئذٍ، فقد كان المستوطنون الفرنسيون الذين وفدوا على الجزائر منذ استعمارها عام ١٨٣٠، يتميّزون بضيق الأفق وجلافة الطبع، والاحتقار للجزائريين أهل البلد.

وجدير بالذكر، أن الروائي الفرنسي الشهير (ألبير كامو Albert

Camus) هو أيضاً ولد في الجزائر في تلك الظروف، فقد وُلد عام ١٩١٣، أي بعد ثلاث سنوات من مولد (جاك بيرك). وكما يتبّين العالم العربي الأمريكي النابغة بروفسور إدوارد سعيد في كتابه القيّم «الثقافة والإمبريالية» فإن (كامو) في حقيقة أمره كان متعاطفاً مع تلك الطبقة من المتوطنين الفرنسيين (Colons) وكان أدبه ـ حين تنظر إليه بعمق كما فعل إدوارد سعيد ـ أدباً يبرر استمرار الاستعمار الفرنسي للجزائر.

يتضح ذلك في قوله عن حركة الكفاح الجزائري للاستقلال في بداية انطلاقها:

«فيما يتعلق بالجزائر، فإن الحافز على المطالبة بالاستقلال، ليس أكثر من الهوس العاطفي البحت. لم توجد أبداً أمة تسمى الجزائر. اليهود والأتراك واليونانيون والإيطاليون لهم حق في الجزائر لا يقل عن حق العرب (...) الفرنسيون في الجزائر، هم أيضاً مواطنون بأدق معنى الكلمة. أضف إلى ذلك أن دولة عربية خالصة، لن تستطيع أن تحقق الاستقلال الاقتصادي، الذي يكون الاستقلال السياسي بدونه مجرد وهم..».

بالمقارنة مع هذا الرأي، من كاتب كان يجد حفاوة بالغة بين اليساريين والوجوديين في فرنسا، وحتى في البلاد العربية، فإن (جاك بيرك) كان بين قلة من المفكرين الفرنسيين الذين أعلنوا انحيازهم الكامل إلى حركة الكفاح الجزائرية.

لم يبدأ (جاك بيرك) في صنع شهرته العلمية في الجزائر، ولكن في المغرب ، التي انتقل إليها، وعمل موظفاً إدارياً في منطقة جبال الأطلس.

كان الاستعمار الفرنسي في المغرب، أخف وطأة منه في الجزائر، فقد حاول حكّام أمثال (الجنرال ليوتي) أن يطبقوا أساليب مستنيرة تحترم إنسانية المواطنين الأصليين، وثقافاتهم وأعرافهم. لم يحاول الفرنسيون أن يتوطنوا في المغرب كما فعلوا في الجزائر، واعتبروه (محمية) وليس مستعمرة. لذلك كان الكفاح لنيل الاستقلال أقل ضراوة ومرارة مما حدث في الجزائر.

صاغ (جاك بيرك) تجربته في المغرب في كتابه «التنظيم الاجتماعي في إقليم أعالي الأطلس» الذي صدر عام ١٩٥٥. ويعتبر إلى اليوم من المراجع العلمية المحترمة عن حياة ذلك الإقليم.

ثم توّجت حياته العلمية أنه عيّن أستاذاً للتاريخ الإسلامي في معهد (الكوليج دي فرانس) العريق، وذلك أعظم شرف يناله أكاديمي فرنسي. هنالك صار زميلاً فترة للمؤرخ الفرنسي العظيم (فيرناند برودل) والعالِم اللغوي الشهير (رولان بارت). بالإضافة إلى ذلك، كان مديراً لمعهد الدراسات التطبيقية العليا.

في تلك الفترة، التي امتدت نحو ثلاثين عاماً، عكف (جاك بيرك) على عمل دراسات عميقة عن أحوال العالم العربي، نشرها في كتب، كلها لقيت احتراماً من الدارسين والمهتمين بشؤون العالم العربي عموماً. من ذلك كتبه: «العرب أمس واليوم ١٩٦٠» ـ «المغرب بين حربين ـ ١٩٦٢» ـ «مصر الإمبريالية والثورة ـ ١٩٦٧». وقد أنفق أكثر من عشر سنوات أواخر حياته في ترجمة القرآن الكريم، ترجمة قال عنها أنه صبّ فيها خبرته كلها في التاريخ واللغة والفقه وعلوم الإنسانيات الحديثة.

هذا، وقد أسعدني الحظ أنني تعرفت على (جاك بيرك) أواسط السبعينيات حين زرته في مكتبه في الـ (كوليج دي فرانس). وكان دون سابق معرفة بي، سارع إلى كتابة مقدمة للطبعة الفرنسية الأولى لرواية «موسم الهجرة إلى الشمال» التي صدرت أوائل السبعينيات. ثم توثقت صلتي به في سنوات عملي في باريس. رغم رصانته العلمية كانت فيه تلك الجاذبية الفرنسية من ميل إلى المرح وحب للحياة. وكما عبّر بصراحة في كتاب سيرته، فقد كان فيه نزوع غير قليل إلى المغامرة. من أمثلة ذلك أنه بعد أن جاوز الستين طلّق زوجته الأولى، وتزوج سيدة إيطالية من عائلة أرستقراطية تصغره بأكثر من ثلاثين عاماً. ويقول في كتاب سيرته، أن ذلك أسخط بعض زملائه وأصدقائه، الذين ما كانوا ليسخطوا لو أنه اتخذ عشيقة أو كان عربيداً مستهتراً.

كان يتحدث اللغة العربية ويكتبها ويحاضر بها، بطلاقة لافتة للنظر، وكان يستهويه الشعر الجاهلي، وامرؤ القيس بصفة خاصة. وجدير بالذكر أنه لم يراوده الشك أبداً في صحة الشعر الجاهلي، كما فعل بعض المستشرقين أمثال (بلاشير) و(مرجوليوث). أحب (جاك بيرك) العربية والإسلام حتى لتحسبه عربياً مسلماً. وكان في سمته شيء يذكّر بالعلماء المسلمين الأوائل. وقد خسر العلم بموته خسارة يصعب أن تعوض، وخسر العرب والمسلمون صديقاً من طراز نادر.

٦

إسقاط مختار أمبو

أذكر أولئك الرجال الثلاثة الأوفياء ملتفّين حول أحمد مختار أمبو حين أخذ نجمه في الأفول. بعد ثلاثة عشر عاماً على رأس منظمة دولية كبرى، لم يعد خافياً أنه يخسر المعركة. ورغم أنه رجل مقاتل بطبعه، فقد بدأت تظهر عليه سيماء القائد المهزوم. بعض الناس ـ بحكم غريزة البقاء ـ لديْهم حاسة قوية لاحتمالات الربح والخسارة في الحياة. كثيرون منهم يدينون له بمواقعهم لكنهم الآن بدأوا ينفضُّون من حوله، إنه مشهد قديم متجدّد، وكل مرة أراه يحدث، فكأنني أراه لأول مرة. لم أكن من خلصائه. لكنني اقتربت منه أواخر عهده، ووثّق بيننا أننا اعتمرنا سوياً، ثم حججنا معاً، ورأيته في تلك المواقف، مختلفاً جداً عنه وهو في هيْله وهيْلمانه في باريس. أن تكون على رأس منظمة دولية كبرى ـ ذلك منصب خطير حقاً. أهم من رؤساء بعض الدول.

في مقره في باريس، كان يتكلم ويتحرّك كأنه رئيس دولة. إنما في تلك المواقف ـ في الطواف حول الكعبة، في السعي بين الصفا والمروة، في الزّحام في رمي الجمرات، وأمام ضريح الرسول صلى الله عليه وسلّم، كان أحمد مختار أمبو إنساناً آخر. إنساناً بسيطاً ورعاً يعتزّ بأنه أفريقي، وأنه مسلم.

كنت بحكم عملي ممثلاً للمنظمة في دول الخليج، أدرك أن قضيّته خاسرة، وأنه أخطأ بترشيح نفسه للمرة الثالثة وكان أفضل له لو خرج طواعيّة واختياراً معزّزاً مكرماً. لكنني أحب القضايا الخاسرة، وقد عجبت يومئذٍ أن الولايات المتحدة الأميركية، بقضّها وقضيضها، اعتبرت إسقاط ذلك الرجل السنغالي الأعزل، من الأهداف الاستراتيجية الكبرى لسياستها. يومئذٍ قالت مندوبتهم في المؤتمر العام لمنظمة اليونسكو:

«إن السياسات التي تتّبعها المنظمة لا تتّفق مع المصالح الحيوية للولايات المتحدة».

حين تقول ذلك دولة كبرى، بل الدولة الكبرى، فمعناه أنها قد أعلنت الحرب. وكذلك كان. انسحبوا من عضوية المنظمة وأوقفوا مساهمتهم المالية التي تبلغ أكثر من عشرين بالمائة من ميزانيتها. وذلك كما لو أن بريطانيا انسحبت من عضوية الكمنولث، لأن أمريكا كانت العنصر الفاعل في إقامة بناء الأمم المتحدة برمته. وأحد شعرائهم هو الذي صاغ تلك العبارة الشهيرة: « ...لأن الحروب تبدأ في عقول البشر فلا بدّ من إقامة صروح السلام في عقول البشر».

وكانت اليونسكو من المنظمات التي أوكل إليها إقامة صروح السلام، بالعمل في مجالات العلوم والثقافة والتربية.

لم تكتف الولايات المتحدة بالانسحاب، ولكنها سلّطت وسائل إعلامها في شن حملة لا نظير لشراستها ضد شخص المدير العام. جاءوا بصحافيين لم يسمع بهم أحد من قبل خصيصاً للهجوم على (أمبو). ولما حققت الحملة أهدافها، اختفوا فجأة ولم يعد أحد يسمع بهم.

كان أمراً محيّراً حقاً. لماذا كل ذلك الجهد وكل تلك الضوضاء؟

لا بد أنهم كانوا يعلمون، أن (أمبو) لم يكن معادياً لهم في حقيقة الأمر. رجل تشرب الثقافة الفرانكوفونية، وعبّ من مناهل الحضارة الغربية، كيف يكون معادياً للغرب ولأمريكا؟

ومهما يكن الأمر، فإن مدير عام منظمة اليونسكو ـ ككل رؤساء المنظمات الدولية ـ ليس هو الذي يصنع السياسة. إنه يرأس جهازاً تنفيذياً يخضع لتوجيهات الدول الأعضاء، ممثّلة في المؤتر العام والمجلس التنفيذي. أقصى ما يستطيع فعله، هو أن يتباطأ في التنفيذ، أو يتحمّس أكثر مما هو مطلوب. ومن دواعي السخرية أن الولايات المتحدة اتخذت إزاء (أمبو) الموقف نفسه الذي وقفه الاتحاد السوفياتي من قبل، إزاء داج همرشولد.

٧

الصفات الكريمة

خسر أحمد مختار أمبو في الانتخاب بثلاثة أصوات لا أكثر، وكان يستطيع أن يفوز، لو أن بعض الدول التي أتهموه بمحاباتها وهاجموه بسببها، تجرأت على تأييده.

سقط كما يسقط رئيس دولة في انتخابات رئاسية. أذكر ضوضاء الفرح ونشوة الظّفر التي عمّت في صفوف خصومه. عجبتُ لذلك. ولعلّ (أمبو) نفسه لم يتصوّر أنه حرّك غيظ بعض الناس إلى ذلك الحد. كان رغم صلابته وحزمه، منصفاً كريماً، مفرطاً في رقته وإنسانيته في بعض الأحيان.

بعد أن انسحبت أمريكا وبريطانيا من المنظمة، رفض أن يُخرج الموظفين الذين يحملون جنسية تينك الدولتين، كما اقترح عليه بعض مستشاريه، وكان يحق له أن يفعل ذلك. وكان يُولي عناية

خاصة بصغار الموظفين. وفرض حماية صارمة على النساء العاملات في المنظمة من المضايقات والمعابثات.

أذكر في مؤتمر نظمته اليونسكو في الخرطوم، وكنّا فوجاً من الموظفين وبيننا عدد من السكرتيرات اللائي جئن من باريس. كنا ننتظر نزول المدير العام من غرفته لنذهب إلى قاعة المؤتمر. ولما وصل قالت إحدى السكرتيرات «لا أظنه يعرفني». فجاء وسلّم علينا جميعاً ينادي كل واحدٍ وواحدة بأسمائهم.

كان يحظى بالتقدير من أغلب العاملين في المنظمة. لكنه أثار السخط لدى فئة منهم، لأسباب عدة. بعض (البيض) من الأوروبيين والأمريكان، لم يستسيغوا أن يعملوا تحت رئاسة رجل أسود... ومسلم أيضاً. وقد يعجب المرء أن يوجد هذا الصّنف المتخلف من البشر، وفي منظمة دولية مثل اليونسكو، قوامها افتراض المساواة، وأنشئت أصلاً لإنارة العقول، وإزالة الحزازات والأحقاد من القلوب. لكن ما أكثر ما تجد أراذل في خدمة أهداف نبيلة.

وبعضهم لم يعجبه أسلوبه في العمل. كان رجلاً جاداً يأخذ نفسه ومعاونيه بالشدة.

لا يكاد يتوقف عن العمل، وسكنه فوق مكتبه مباشرة في مقر اليونسكو. وكنتَ حين تمرّ بميدان (فونْتينوا)، ترى الأنوار مضاءة في مكتب المدير العام إلى ساعة متأخرة من الليل.

كان يتابع كل صغيرة وكبيرة، يقرأ كل ورقة تُرفع إليه، ويعلّق ويؤشر في الهوامش، ويلاحق الموظفين المعنيين بالتلفونات

والمذكرات. وكان حين يسافر يحمل معه حقائب مليئة بالأوراق، ويبدأ في العمل أول ما تقلع الطائرة. وأول ما يصل إلى حيث يقصد، يعقد اجتماعاً مع مرافقيه مهما كان الوقت متأخراً. يصلي الفجر حاضراً، ثم يواصل العمل إلى ما بعض منتصف الليل.

كان محتشداً يقظاً على الدوام، يملك طاقة خارقة على العمل قلّ أن تتوفر لأحد. وكان العمل معه في حل أو سفر أمراً مرهقاً حقاً كما جرّبت بنفسي، لا عجب أن بعض الناس لم يستطيعوا معه صبراً.

وبعض الذين ناصبوه العداء، كانت تحركهم أيادي من خارج المنظمة، وبعضهم لم يستطيعوا التمييز بين العدو والصديق، وبعضهم ملّوا تطاول عهده، فأرادوا التغيير في حد ذاته. والتغيير يغري بعض الناس، لأنه يجلب معه احتمالات جديدة.

كان أحمد مختار أمبو في حقيقة الأمر، زعيماً من سُلالة منقرضة من الزعماء، أكبر من وظيفته ومخالفاً لزمانه. رجلاً له فلسفة ويريد أن يحدث ثورة. ولم يعد الزمان يطلب فلسفة أو ثورة. لذلك كان حتماً أن يخسر.

لا أخفي أنني لم أحزن لسقوطه، وقلت لعلّ الله أراد به الخير. سوف يجد متسعاً من الوقت ليفكّر ويسترجع ويكتب. وهو رجل صاحب تجربة وفكر. ويستطيع أن يقول الكثير.

الذي استهواني وحرّك حب الاستطلاع عندي ـ كما يحدث للكاتب الروائي، الذي يراقب دائماً وإن كان مشاركاً في الأحداث

ـ هو ذلك المشهد القديم المتجدد. الجموع التي ترحل مدفوعة بما تحسبه غريزة البقاء، من باب المهزوم إلى باب المنتصر، تكاد تسمع لحركتهم دوياً كدويّ الحيوانات المذعورة في الغابات. المنتصر يمتلىء فجأة بطاقة غامضة، كما تمتلىء القربة بالماء، فإذا هو شخص آخر. إلّا من رحم الله.

والمهزوم لا يبقى منه غير ما هو فيه أصلاً. بعض المهزومين لا يبقى منهم شيء، لأنهم لم يكونوا أكثر مما أضفاه عليهم هيلهم وهيلمانهم. وآخرون يظلون كما هم، وربما يكونون في حالات الهزيمة أفضل مما كانوا في حالات النصر.

وهكذا اجتمعنا في وداع أحمد مختار أمبو ذلك الصباح من مطار باريس. لم يضيع وقتاً بعد إعلان نتيجة الانتخاب. قضى يوماً واحداً ليجمع أوراقه ويُخلي مكتبه. وسافر في اليوم التالي.

كان حين يسافر أيام عزّه، يكونون في وداعه بالعشرات. وها نحن اليوم أقل من عشرة. رجل وامرأة مسنّان من قدامى موظفي اليونسكو، ورجل يهودي طاعن في السن واضح أنه من أصدقائه المقربين ـ من أعجب التهم التي وُجِّهت لأحمد مختار أمبو أنه يكره اليهود.

لم يكن غاضباً ولا ساخطاً. كان، كعهده دائماً ممتلئاً بتلك الصفات الكريمة الموجودة فيه أصلاً، وهي صفات ميّزها أولئك الرجال الثلاثة الأوفياء فأحبّوه لأجلها، وليس لأنه مدير عام منظمة اليونسكو. وها هم ملتفّون حوله في ساعة هزيمته، كما كانوا في أيام انتصاره.

الدكتور محمد إبراهيم كاظم من مصر، والدكتور عبد الرزاق قدورة من سورية، والدكتور بشير البكري من السودان.

٨

الشيخ خليفة وقطر

أول ما كان يجذب نظرك في وجه ذلك الرجل الكريم ـ أحد أولئك الثلاثة الذين التفُّوا حول (أمبو) حين انفضّ عنه الناس ـ أنه كان دائم الابتسام. كان مفعماً بفرح داخلي، وهي صفة اشتركوا فيها جميعاً.

عرفت الدكتور محمد إبراهيم كاظم أول مرة، في قطر عام خمسة وسبعين أو نحوه. كان الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير الدولة، قد قرّر أن ينشىء جامعة، فاستقدم الدكتور كاظم ليكون مديراً لها، وكان قبل ذلك أستاذاً للتربية في جامعة الأزهر. أيّده الأمير تأييداً كاملاً وأطلق له العنان، فأنشأ الجامعة من ألفها إلى يائها على أساس فلسفة وفّقت بين الروح الإسلامي، والنظريات التربوية الحديثة، مستعيناً بخبراء من اليونسكو وأوروبا وأمريكا.

جعل معمارها على هيئة خلية النحل، كما صمّمه المرحوم الدكتور الكفراوي من معهد الـ (بوزار) في باريس. وجعل شعارها الآية من القرآن الكريم ﴿إن صلاتي ونُسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين﴾.

قضى أكثر من عشر سنوات مديراً للجامعة حتى أرسى دعائمها وجعل لها سمعة طيبة بين جامعات العالم. وكانت خُطَبُه في حفلات التخرج، روائع من البلاغة والبيان الناصع والجرأة العقلية. كان عميق الإيمان بالتراث الإسلامي ومجدداً جموح الخيال في الوقت نفسه. وكان من حسن حظه أنه وجد في أمير دولة قطر، رجلاً يقدّر الإخلاص والجرأة، فأعطاه الحرية الكاملة، ليمضي بذلك المشروع التربوي الجليل، إلى أقصى غاياته.

ولا بد من القول، والشيء بالشيء يذكر، أن إنشاء الجامعة لم يكن المشروع الوحيد الذي يعود الفضل في تحقيقه إلى الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني. بل إن نهضة قطر برُمتها، وكونها تحوّلت إلى دولة حديثة مُعتبرة، ما كانت لتتحقّق لولا جُهد الأمير ودأبه وإخلاصه.

كانت الدوحة حين حللتُ بها أواخر عام أربعة وسبعين، بلدة صغيرة لا يُؤْبَه لها. كثيراً ما يجف ماؤها وتنقطع كهرباؤها. أحياؤها مبعثرة، ومعمار بيوتها فوضى، وشوارعها مُتربة تتسكع عليها الفئران في رابعة النهار. العيش فيها مكابدة ومعاناة.

إنما كان واضحاً أن الخطط قد اكتملت لعمل نهضة واسعة، ولم يكن قد مضى على تولّي الشيخ خليفة مقاليد الحكم إلّا أقل من عامين. وبالفعل، سرعان ما انطلقت حركة شاملة للبناء والتعمير

والإصلاح وإقامة أسس الدولة الحديثة. وهي حركة اكتملت في نهاية السبعينيات. في تلك الفترة اكتمل صرح الجامعة أيضاً.

سوف يذكر التاريخ للشيخ خليفة بن حمد آل ثاني كل ذلك. وهو رجل شديد الإحساس بالتاريخ. لكن التاريخ العربي في ظني ـ وهو تاريخ قائم ومستمر رغم ما يبدو لبعض الناس أحياناً ـ سوف يذكر للشيخ خليفة خاصة، أنه أنجز مشروعه التنموي بالتعاون بين الخبرات القطرية والخبرات الوافدة من شتى البلاد العربية. ولم يحدث ذلك اعتباطاً، بل بوحي سياسة متعمدة، وعَت عبَر الماضي واحتمالات المستقبل. ويسعد المرء أن يقول، إن دول الجزيرة العربية كلها، طبقت سياسات مماثلة، بدرجات متفاوتة.

من أمثلة تلك السياسة الحكيمة في قطر، أن المستشار السياسي والقانوني للأمير، كان مصرياً، هو المرحوم الدكتور حسن كامل، وكان رجلاً فقيهاً عالماً تمرّس في السلك الدبلوماسي المصري. وكان المسؤول عن شؤون الموظفين والقوى العاملة فلسطينياً، هو المرحوم داود فانوس، وكان رجلاً منقطع النظير في نزاهته وتفانيه في خدمة الدولة، حتى تُوفي وهو يعمل. وكانت لديه إحاطة مذهلة بمقومات الدولة صغيرها وكبيرها. وحين توفّي جاءوا بعشرات الموظفين ليملأوا مكانه، فلم يُغنوا غناءه.

وكان رئيس القضاء سودانياً هو الأستاذ الفاتح عووضة، من الذين آثر بهم السودان دولة قطر رغم حاجته إليهم. وهذا ـ أطال الله عمره ـ رجل نادر المثال في تهذيبه وعلمه وفضله. وكان مدير الخدمات الطبية، ومدير الشؤون المالية، أردنيين، هما الدكتور عمر حشيشو والأستاذ عبد القادر القاضي. وهؤلاء قليل من كثير.

إنني قضيت في قطر سنوات لا تُنسى، استفدت منها تجربة ومعرفة. وقد أسعدني الحظ بالتعرّف على عدد كبير من القطريين، لا يتّسع المجال لذكرهم الآن. لكنني أذكر على سبيل المثال، ذلك الإنسان المهذب المتحضر الأستاذ علي بن أحمد الأنصاري، وكان يومئذٍ وزيراً للشؤون الاجتماعية. كنت كلما زرته، أجد فيضاً من ذكائه وتجربته الواسعة. والشيخ أحمد بن سيف آل ثاني، وكان أول مسؤول قطري أتعرف إليه، حين كان سفيراً في لندن. وهو أول من رغّب إليَّ العمل في قطر. أصبح بعد ذلك وزيراً للدولة في وزارة الخارجية، ثم وزيراً للصحة ثم وزيراً للعدل. وأشهد أنني لم أقابل كثيرين مثله في بساطته ولطفه وكرم خلقه.

كذلك سعدت بمعرفة الشيخ حمد بن جاسم بن حمد آل ثاني، وكان يومئذٍ قائداً للشرطة. وهذا شاب أعجبني فيه، أنه كان جادّاً مقبلاً على العمل. تخرّج من كلية الشرطة في (هندُن) في إنجلترا، ثم ظل يدرس وهو ينهض بأعباء الأمن، حتى نال درجتي الليسانس والماجستير في الحقوق. يستهويه التاريخ العربي، خاصة تاريخ الأندلس. ذلك إلى جانب روح من الشهامة العربية المتأصلة.

وأيضاً شريده بن جبران الكعبي الذي كان سفيراً في القاهرة ثم في لندن، ثم صار وكيلاً لوزارة الشؤون الاجتماعية. وهذا فتى عربي (ولَدْ قبائل) كما نقول في السودان، فيه ذلك الخُلق الأصيل، مع ذهن متوقّد ورغبة في المعرفة، لا تحدّها حدود.

إنما الرجل الذي عرفته أكثر من غيره، وأسعدني الحظ بالعمل معه عن قرب، فهو الدكتور عيسى بن غانم الكواري. كان يومئذٍ مديراً لمكتب الأمير ووزيراً للإعلام. إنه إنسان اجتمعت فيه صفات إذا

اجتمعت في إنسان، فإنه يكون محظوظاً.. الذكاء المفرط، والطاقة الهائلة على العمل، والتواضع العجيب، وحبّ الخير ومساعدة الناس، والميل إلى رفع الكلفة، والصبر.

بلى، سوف يذكر التاريخ للشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، أنه بنى فأحسن البناء، واختطّ سياسة حكيمة متّزنة أخذت في الاعتبار صلات الرحم وحسن الجوار. والتاريخ لا يفعل شيئاً طال الزمان أم قصر. ويحمد للأمير الجديد الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني أنه سارع فأشاد بدور والده الجليل، ووعد بأن يترسّم خطاه. وقد عرفته وهو ولي للعهد فوجدته إنساناً متهلل الوجه على الدوام متواضعاً جمّ الذكاء. إنني أرجو له التوفيق والسداد.

هذا، وقد تركت قطر أواخر عام ثمانين. أحسست أن مهمتي قد انتهت، وعليَّ أن أبدّل أرضاً بأرض وأفقاً بأفق. وأشهد أنني لم أفارقهم عن قلبي، ولا هم فرّطوا فيَّ عن ملالة. إنما هو ذلك الداء القديم الذي عكّر على أبي الطيّب صفوه، داءُ الرحيل:

لا أقمنا على مكان وإنْ طاب
ولا يُمكن المكانَ الرحيلُ.

٩

مكتب اليونسكو في عمّان

جمعتنا الظروف بعد ذلك في عمان، وكان الدكتور كاظم رحمه الله، قد صار مديراً لمكتب اليونسكو في الدول العربية بإلحاح من (أمبو). وكان قد أحسّ في عام خمسة وثمانين، أن مهمته في دولة قطر قد اكتملت، وعليه أن يخوض تجربة جديدة، بالإضافة إلى أنه أراد أن يكون إلى جانب أحمد مختار أمبو، وكانت بينهما صداقة قديمة. وكذلك ترك قطر رغم تمسك الأمير ببقائه.

كنت محظوظاً أنني عملت في ذلك المكتب بصحبة الدكتور كاظم، بعد أن تركت الدوحة للمرة الثانية ـ إذ إن (أمبو) كان قد أعادني إليها ممثلاً للمنظمة في دول الخليج. كان المرحوم كاظم رجلاً رائداً. وكما أسس جامعة قطر، كذلك أسّس مكتب اليونسكو في عمّان، وكأنه بناء جديد. كان المكتب أصلاً في بيروت، ثم نقل إلى باريس بسبب الحرب في لبنان، ثم قررت

المنظمة أن يكون في عمّان.

وجدت أن الدكتور كاظم، كما يفعل دائماً، جمع حوله رجالاً نابهين فضلاء، خليطاً من جنسيات عربية شتى، فلم يكن يفرق بين عربي وآخر.

وكانت لديه موهبة في التوفيق بين الأفكار المتضاربة وحشد الطاقات وتوجيهها نحو الهدف المشترك. والهدف كان عظيماً حقاً. كان كاظم يؤمن إيماناً عميقاً، أن التعليم المبني على قيم الإسلام وتراث الأمة ومتطلبات العصر هو السبيل إلى النهوض الصحيح المستنير.

وهو نفسه كان مثلاً للإنسان المستنير، لذلك لم يكن من هؤلاء الرؤساء الذين يتبعون أسلوب الضبط والربط في الإدارة، ويعتمدون على سلاح التخويف، فيضيّقون على مرؤوسيهم ويحاسبونهم على كل صغيرة وكبيرة. كان على عكس ذلك، يفترض روح المسؤولية في مرؤوسيه، ويترك لهم حرية التصرف، ويحاسبهم على النتائج.

وكان هو كمسؤول يتصرف بجرأة كبيرة في حدود صلاحياته، دافعاً بتلك الصلاحيات إلى أقصى حدودها، مطالباً بمزيد من حرية التصرف، إذا وجد أن مصلحة العمل تقتضي ذلك. ولم يكن يرجع إلى الرئاسة في باريس إلّا نادراً، وإذا اقتضت الضرورة يتصل بالمدير العام مباشرة، متخطياً القنوات البيروقراطية المعهودة.

لم يكن فيه شيء من ضيّق أفق البيرقراطية، فلم يحبّبه ذلك إلى قلوب موظفي اليونسكو في باريس، فهي كسائر المنظمات الدولية،

ورغم أهدافها النبيلة، منظمة مثقلة بالروح البيروقراطي، وفيها موظفون لا يتحركون إلّا في نطاق اللوائح الإدارية.

كان رحمه الله إنساناً صريحاً مباشراً، وكان يميل إلى البساطة في العيش. وكان أحب شيء إليه، الأطعمة الشعبية مثل الفول المدمّس أو (المنسف) في مطعم (القدس) في وسط عمّان، حين تكون زوجته الفاضلة الدكتورة صفاء في القاهرة، حيث هي أستاذة في الجامعة.

إلّا أنه مع بساطته، كان مفكّراً عميق الفكر، متصل الحوار مع نفسه ومع الآخرين في قضايا الحياة الكبرى وقضايا الأمة. ومن حسن حظي أنني حاورته طويلاً، واكتسبت منه فوائد عقلية وروحية لا تحصى. كان عقلاً مضيئاً وروحاً خيّراً، تستفيد منه وكأنه هو الذي يستفيد.

طال بيننا الحوار في عمان خاصة أيام عملي معه. كنا نمشي في أوائل المساء، فقد كان يحب المشي. وقد أخبرني أنه، أيام عمله في الدوحة، كان يمشي بعد منتصف الليل، حين تهدأ الحركة ويبرد الهواء. كان يعتني بجسمه كما يعتني بعقله، ينطبق عليه الشعار (العقل السليم في الجسم السليم). وقد اعتمرنا معاً ذات مرة، فكنت ألهث لألحق به في السّعي. ولما كلمته في ذلك فيما بعد، قال ضاحكاً: «نعم. أنا أحافظ على صحتي».

لأنه كان مسلماً كما يجب أن يكون المسلم، وإنساناً كما يجب أن يكون الإنسان، كنت أشعر حين أستمع إليه، أن ها هنا رجلاً فتح الله عليه فتحاً مبيناً. كان حين يفتتح المؤتمرات يخطب ارتجالاً،

وأحياناً يتحدث الساعة والساعتين، لا يثرثر، ولا يقول لغواً، ولكنه يتدفق فكراً طريفاً وبياناً ناصعاً.

كان بسبيله إلى أن يصبح ـ بل أصبح بالفعل ـ علماً من هؤلاء الأعلام، الذين يضيئون المسالك، وتُشد إليهم الرحال. وكان ينوي حين يبلغ سن التقاعد، أن يذهب إلى السودان، ويدرّس تطوعاً في جامعة الخرطوم، ويقيم عاماً أو عامين ليتعرف أكثر على السودان. كان يحمل حباً خاصاً للسودان وأهله، ويقدر تقديراً عميقاً العلاقة التي تربط السودان بمصر.

لا عجب أن رئيساً من طراز غير عادي مثل المرحوم كاظم، جعل من مكتب اليونسكو في عمان مكتباً غير عادي. أشاع روحاً من الودّ والألفة حتى صار الساعي وعامل البوفيه والسائق والخبير والمدير، كلهم سواسية. وكما يحدث حتماً، فإن ذلك المناخ قد شحذ العقول وحفز على الخلق والإبداع، فكان ذلك المكتب نادر المثال بين مكاتب اليونسكو.

لكن يا للأسف، كأن الزمان ليس من طبعه أن يسامح باستمرار مثل تلك التجارب الإنسانية الفريدة. فجأة باغت المرض الدكتور كاظم وهو في أوج نشاطه الجسمي وتوقده العقلي. جاءه من حيث لا يحتسب ورمٌ في الدماغ. كان أمراً محزناً حقاً أن ترى ذلك الإنسان المتدفق المبين، وقد ألجمه المرض، فكأنه أسد هصور في قفص.

ثم بغتة أيضاً، قُتل ذلك الإنسان النبيل حامد الخوّاص. أطلق عليه الرصاص رجل معتوه كان الدكتور كاظم قد عيّنه سائقاً، وأحسن إليه هو وحامد الخوّاص أيّما إحسان.

حلّ بالمكتب شيء مثل اللعنة. تبدد شمله وانفضّ سامره. الإنسان المهذّب العالِم الأديب عبد الواحد يوسف، والرجل الفاضل عبد الله بو بطانة، والعالم الفكِه غازي أبو شقرا رحلوا إلى باريس. ومدام صالحاني وآخرون انتقلوا إلى بيروت. وهاشم أبو زيد أخو الخبرة والفهم، ما عاد يجيء إلّا لماماً. والشبان والشابات النابهون الذين جمعهم الدكتور كاظم من الجامعة الأردنية، تفرقوا وكل منهم ذهب في طريق. وآخر مرة زرت المكتب وجدت أنهم أقاموا على مدخله باباً من الحديد وشدّدوا الحراسة. وفي مكان الألفة والمرح والود التي بثّها الدكتور كاظم، وجدت جواً من التوتر والكآبة.

١٠

الدكتور عبد الرّزاق قدُّورة

سألت الدكتور عبد الرزاق قدّورة، عن سرّ إعجابه بأحمد مختار أمبو، فأجابني أنه لقيه أول مرة إذ هو وزير التربية في السنغال. وكان الدكتور قدورة يومئذٍ، مساعداً للمدير العام في منظمة اليونسكو مسؤولاً عن قطاع العلوم، وهو منصب ظل يشغله في عهد (أمبو) أيضاً.

قال، إن الوقت كان في رمضان، وكانوا صائمين. ولفت نظره أن (أمبو) كان يعمل بنشاط فائق طول النهار في اجتماعاتهم معه. حين تغرب الشمس، يُوقف العمل بقدر ما يفطرون ويصلّون المغرب، ثم يواصلون اجتماعاتهم حتى صلاة العشاء، ثم يعودون إلى العمل.

كذلك كان في باريس. حين يحلّ شهر رمضان ـ وأحياناً يكون

في الصيف بنهاره المتطاول ـ يواصل العمل، وكأنه في حيويته ويقظته الذهنية ليس صائماً. ويسوق معاونيه سوقاً حثيثاً كعادته. بعض المسلمين حوله، الذين ربما أرادوا التحلّل من الصيام في تلك الظروف، كانوا يصومون حياءً منه ومهابة له.

رُوحان خيّران، وجد أحدهما الآخر في (دكار) فتعارفا وتآلفا، وتحابا حباً خالصاً لوجه الله، كما يحبّ المسلم الحق أخاه المسلم. هذا مسلم (أبيض) من بلاد الشام، وذاك مسلم (أسود) من غرب أفريقيا.

كان (أمبو) يحترمه ويأنس إليه، ويحب أن يصطحبه في رحلاته. أول مرة سافرت معهما، كانت بدعوة من الأمير عبد الله وليّ عهد المملكة العربية السعودية ورئيس الحرس الوطني، لحضور مهرجان الجنادرية. حين وصلنا مقر إقامتنا في الرياض، وجدت أنهم خصّصوا لـ (أمبو) جناحاً فاخراً، وخصّصوا للدكتور قدورة غرفة عادية.

كان (أمبو) رغم بساطته يهتم جداً بمستوى السكن الذي يخصص له. لم أفهم ذلك أول الأمر، ولعلّني اعتبرتُه مطعناً في شخصية ذلك الرجل المحترم على وجه العموم. ثم أدركت أنه لا يفعل ذلك حباً في الرفاهية، ولكنه يعتبره دليلاً على مدى التقدير لمنصبه كمدير عام لمنظمة دولية كبرى.

سرعان ما أصلح شباب الحرس الوطني المكلّفون باستقبالنا الخطأ، فخصصوا جناحاً للدكتور قدُّورة. ولما ذهبنا إليه وجدناه قد نثر أغراضه واستقر في غرفته. كانت أغراضه قليلة دائماً، يضعها في حقيبة يد صغيرة يدخل بها الطائرة.

لم يعجبه أن ينتقل من غرفته، وقال لي:

«يا أخي ما هو العيب في هذه الغرفة؟ إنها تكفيني وزيادة».

وبعد رجاء وإلحاح رضيَ أن ينتقل إلى الجناح المخصّص له.

إنسان عجيب حقاً. يبدأ يومه في باريس مع صلاة الفجر. ويسبح كل صباح في حمام سباحة مجاور لداره. ويذهب مشياً إلى مكتبه، حيث يكون جالساً يعمل، قبل ساعة من وصول بقيّة العاملين. لا يملك سيارة، ولا يؤم حفلات الكوكتيل، ولا يزور إلّا دوراً قليلة، منها دار الدكتور بشير البكري الذي كان يومئذٍ سفيراً للسودان في باريس.

من الذين يمشون هوناً على وجه الأرض. ورعٌ بلا تكلّف. هو الآخر فتح الله عليه فتحاً مبيناً، صافي الذهن، يملك قدرة خارقة على التعلّم، خاصة تعلّم اللغات. ما أن يمتلك لغة حتى يأخذ في تعلّم أخرى. ومن اللغات التي يتقنها ـ إلى جانب الإنجليزية والفرنسية ـ الإيطالية والإسبانية والألمانية والصينية والروسية.

عالم فيزيائي مرموق وله شهرة واسعة، وكان قبل أن يعمل في منظمة اليونسكو، مديراً لجامعة دمشق. بالإضافة إلى كل ذلك، عُرف في أوساط اليونسكو بأنه إداري من طراز رفيع، وربما كان أبرز مساعدي المدير العام في ذلك الوقت، وقد شهدته في الاجتماعات السنوية، حين يعرض مساعدو المدير العام خططهم وبرامجهم، فكان لافتاً للنظر في قدرته على الإيضاح دون إطالة أو إسهاب، يتحدث بلغة فرنسية عالية وكانت برامجه تُجاز دائماً دون اعتراض أو جدل.

لم أسأله إن كان يحفظ القرآن الكريم، لكنني أرجّح ذلك، فوجهه يشعّ بضوء القرآن، وحركاته وسكناته وأسلوبه في العيش كأنها أصداء لآياتِ الكتاب المبين. وأثر القرآن واضح في أسلوبه العربي الرصين، حتى حين يكتب أو يحاضر في قضايا علمية معقّدة.

الدكتور عبد الرزاق قدُّورة ـ حفظه الله ـ رجل فذّ بكل معاني الكلمة، يذكّرك بعلماء المسلمين في عصور التنوير الأولى، حين كان العقل المسلم قادراً على طرق أبواب المعرفة، لا يفرّقون بين الرياضيات والفقه واللغة والشعر.

لذلك لم يكن عجباً، أنني وجدت هذا العالِم الفيزيائي، يحب المتنبي، ويحفظ معظم ديوانه، وربما يحفظ ديوانه كله.. وقد قضيت معه أوقاتاً طيّبة بصحبة المتنبي.

هذا الرجل الضخم، اختار بدافع الصداقة والحب أن يضع نفسه إزاء (أمبو) موضع المريد من الشيخ. كنت أنظر إليه يحنو على صديقه كما يحنو أب على ابنه، فيثير ذلك في نفسي العطف، وقليلاً من الحيرة، فقد كنت أحسّ أن المريد ليس أقل مكانة من الشيخ. وقد قلت لـ (أمبو) مرة، في لحظة من لحظات تجرئي عليه ـ وقد أَلِفني أواخر عهده وألف جرأتي عليه:

«أرجو أن تكون مدركاً مدى محبة الدكتور عبد الرزاق لك».

فبدا على وجهه التأثر، وقال «نعم.. نعم. إنني أعرف ذلك».

وكانت آخر لفْتة شهدتُها من الدكتور عبد الرزاق قدُّورة نحو

صديقه، أنه بعد أن ودّعه في مطار باريس ذلك الصباح، لم يلبث أن قدّم استقالته. لم يشأ أن يبقى بعده، رغم تشبث المدير العام الجديد به، وحاجة اليونسكو إليه. فيا له من رجل؟ ويا له من صديق!

١١

الدكتور بشير البكري

الدكتور بشير البكري ـ ثالث أولئك الثلاثة الأوفياء ـ من الفوج الأول من السودانيين الذين أتمّوا تعليمهم الجامعي في مصر، من حيث أرسلوا إلى فرنسا فنال بعضهم شهادة الدكتوراه. وقد حصل الدكتور بشير على درجته من السوربون في الاقتصاد. من هذا الرعيل الدكتور محيي الدين صابر، والدكتور أحمد السيد حمد، والمرحوم الدكتور عقيل أحمد عقيل.

هذا المنحى، جعلهم في بداية الأمر، فريقاً قائماً بذاته، فلم يكن في السودان حينئذٍ أحد يعرف اللّغة الفرنسية أو تعلّم في فرنسا. كان أبناء جيلهم جميعاً، نتاج تعليم (أنجلو سكسوني) إما في السودان، أو في إنجلترا. لكنهم سرعان ما دخلوا في نسيج الحياة العامة، بفضل سودانيّتهم المتأصلة، وأصبح (اختلافهم) ميزة خدموا بها الوطن خدمات عظيمة، وما يزالون.

كذلك فإن اتصالهم الباكر بمصر، جعلهم أكثر إدراكاً لقضية المصير المشترك بين مصر والسودان.

حين أذكر الدكتور بشير البكري، يتبادر إلى ذهني فوراً، صديقه الحميم الدكتور محيي الدين صابر، كل منهما سار في طريق، لكنهما كانا يلتقيان كثيراً في باريس. كنت أجد متعة ذهنية وروحية خاصة في مجالستهما معاً. إنسانان جمعتهما التجارب المشتركة والذكريات والألفة، أعواماً طويلة. كل واحد منهما يكون على سجيّته كما لا يكون إلّا مع قلّة من البشر. وهما أيضاً متماثلان في صداقتهما لأحمد مختار أمبو، وقد أيّده الدكتور محيي الدين صابر تأييداً عظيماً من موقعه كمدير عام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

حين التحقت بمنظمة اليونسكو آخر عام ثمانين، وجدت الدكتور بشير سفيراً للسودان بها للمرة الثالثة. وكان من قبل أول سفير للسودان في فرنسا غداة الاستقلال. كانوا في تلك الأيام الوضيئة، يعيّنون السفراء، ليس بمقياس ولائهم للحكومة، ولكن بمقياس الكفاءة والقدرة على النهوض بعبء تمثيل الوطن بأكمله.

كان الدكتور بشير خير ممثّل للسودان. كان واضحاً بقدراته العقلية وجاذبيته الشخصية. وكانت داره ملتقى عامراً لرجال السياسة والفكر والأدب والصحافة، من الفرنسيين والعرب والأفارقة. وكان صاحب الدار، كعهده دائماً حيثما كان، جامعاً للشّمل، محبّاً للخير، يتحلّى بتلك الصفة النادرة، أنه يستطيع دائماً أن يصل إلى الأساس المشترك، تحت سطح اللّجاجة وتباين الأفكار.

الدكتور بشير حفظه الله، من هؤلاء الناس الإيجابيين، وهم ليسوا كثيرين في العالم، الذين يؤمنون أن أي معضلة مهما عظمت، لا بد أن يوجد لها حلّ ـ بالعلم والحكمة والجهد والصبر.

وكل تلك الفضائل متوفرة عنده بدرجة عظيمة. كان في تلك الأيام، إلى جانب عمله سفيراً للسودان، أيضاً عضواً في المجلس التنفيذي لليونسكو، وعضواً في مجلس إدارة جامعة الأمم المتحدة في طوكيو، ورئيساً لصندوق دعم الثقافة، وعضواً في عدد من اللجان. كان متصل النشاط، دائم السفر، وما يزال.

بالإضافة إلى كل تلك الصفات، يتميّز الدكتور بشير بالميل إلى الدعابة والمرح. وما أكثر ما تعقّدت الأمور في لجان اليونسكو وفي المجلس التنفيذي، فكان الدكتور بشير دائماً يجد لها حلولاً، بروحه المرحة ودعاباته الذكيّة.

إنما الذي ساقني إلى هذا الحديث أصلاً، هو أمر الصداقة والوفاء، وفي هذا لم يكن الدكتور بشير رعاه الله، بأقل وفاء من صاحبيه لصديقهم المشترك.

كان (أمبو) حريصاً غاية الحرص، أن يعقد آخر مؤتمر في سلسلة المؤتمرات عن سياسات الاتصال والإعلام. وهي مؤتمرات ارتبطت بما سُمي (النظام الإعلامي الجديد) الذي أثار سخط الولايات المتحدة ومن رأى رأيها من الدول الأوروبية. أراد أن يتوّج عهده بذلك المؤتمر، ولعله أدرك أنه لن ينال تفويضاً للمرة الثالثة.

كان المؤتمر يُعنى بسياسات الاتصال في الدول العربية، فكان لا بدّ

أن يُعقد في دولة عربية. لكن اليونسكو عجزت أن تجد دولة عربية تقبل باستضافته. انبرى الدكتور بشير البكري بحصافته المعهودة فأقنع حكومة السودان بعقده في الخرطوم. ورغم العقبات والظروف الصعبة التي اكتنفت منظمة اليونسكو حينئذٍ، فقد كان ذلك المؤتمر، باعتراف الكثيرين، أنجح مؤتمر عقدته المنظمة في موضوع الإعلام والاتصال. وكان الدكتور بشير هو العنصر الفاعل والطاقة المحرّكة.

في أثناء ذلك أحاط الدكتور بشير صديقه، بجوّ غامر من الحفاوة والود. وكان الوقت وقتَ ديموقراطية في السودان، بعد انتفاضة رجب المباركة. والسودانيون يكونون في أحسن حالاتهم في ظلال الديموقراطية، فاحتفوا بـ (أمبو) حفاوة لعلّه لم يشهد مثلها طوال عمله في منظمة اليونسكو. وبلغت تلك الحفاوة ذروتها، حين منحه رئيس الدولة أرفع وسام في الجمهورية. لا عجب أن الدموع فاضت في عيني (أمبو) من شدة التأثر.

لذلك أقول، إن أحمد مختار أمبو حين غادر باريس ذلك الصباح، فإنه غادرها منتصراً. تخفّف من أثقال جاهه وسلطانه في اليونسكو، وحمل معه ذلك الشيء الذي لا يُقدّر بثمن ـ صداقة ثلاثة رجال أوفياء فيا لهم من رجال!
ويا لهم من أصدقاء!

١٢

خواطر موسمية

﴿قالت أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أكُ بغياً. قال كذلك قال ربك هو عليَّ هيِّن ولنجعله آية للناس ورحمة منّا وكان أمراً مقضياً﴾.

صدق الله العظيم ـ سورة مريم

مرة أخرى تسري حمى (الكرسماس). كأنهم يحثون العام القديم على الانصراف. يريدون عاماً جديداً واحتمالات جديدة.

كانوا أيام وثنيتهم يغالبون الكآبة، كآبة البرد والظلام، بالصخب والعربدة. ولما جاءتهم المسيحية خلطوا بعض تلك العادات بالطقوس المسيحية، لذلك قدموا مولد السيد المسيح عليه السلام، أو أخروه، حتى يتفق مع نهاية العام.

قد لا يكون حقيقة ما وصفه الشاعر (تي .أس. أليوت) في قصيدته «رحلة المجوس» - الملوك الثلاثة الذين رأوا النجم، كما رووا، فتبعوه حتى أوصلهم إلى مهد الطفل الوليد في بيت لحم - ولكنه صحيح بمعنى آخر:

«كانت رحلة فظيعه،
في أسوأ وقت من السنة،
حين يحسنُ بالمرء ألّا يخرج في سفر.
الدروب وعرة، تصعد وتهبط،
والطقس قاسٍ كدر.
في عزّ الشتاء.
رواحلنا أضناها الجهد،
وتشققت أخفافها من البرد
فسقطت من الإعياء على الثلج.
كنا أحياناً نوبخ أنفسنا
أننا قمنا بتلك الرحلة،
ونتحسر أننا تركنا قصورنا الفخمه
على سفوح التلال المشمسه،
والعذارى في ثياب الحرير
يحملن كؤوس الشراب المترعة».

هذا موسم فيه أصداء من ذلك الموسم قبل نحو ألفي عام، كما حدّث الرواة ووصف الشعراء. الصخب والعربدة، والتذكر والنسيان، والحانات والكنائس.

العالم الوثني المادي، والعالم الروحاني المسيحي، يسيران جنباً إلى جنب.

قد تعجب أن ذلك الطفل السماوي وليد الضياء، كيف جاء إلى هذه التخوم المظلمة.

إنما الضوء يتنزل أصلاً، لوجود الظلام.

يؤججون سعار الناس في هذا الموسم ليأكلوا أكثر ويشربوا أكثر ويشتروا أشياء لا يحتاجون إليها. تزدهر التجارة في هذا الموسم.

القطارات تغدو وتروح، تجلب أناساً من أماكن بعيدة إلى ذويهم في لندن، وتحمل أناساً إلى أقارب لم يروهم طوال السنة.

في محطات السكة الحديدية خاصة ـ في مفترق الطرق ـ جوقات من رجال ونساء وأطفال يجمعون المال لأعمال البِر. يغنّون ترانيم عيد الميلاد بأصوات جميلة، ويكشكشون بعلب في أيديهم على وقع الغناء. يقف المارة برهة يستمعون إليهم، ويضعون في العلب البنس والبنسين، وربما الجنيه والجنيهين.

«مري كرسماس، مري كرسماس».

الطفل المضيء في وجدانهم، الذي وُلد في بيت لحم من أرض فلسطين، يحرك أريحياتهم.

يزداد كل شيء في هذا الموسم ـ القسوة والرحمة والجشع والكرم والتذكر والنسيان.

لعل شيئاً من ذلك هو ما عناه الشاعر حين قال على لسان الملوك المجوس الثلاثة:

«... كان ذلك الميلاد مؤلماً لناً،
كأنه موت، كأنه موتنا نحن.
قفلنا راجعين إلى أقاليمنا،
إلى تلك الممالك.
لكننا ما عدنا نحس بالطمأنينة
ونحن نفرض القوانين القديمة
على شعوب وحشية تتشبث بأوثانها،
وددنا لو أننا نشهد موتاً آخر».

١٣

زيارة الأحباب في زمن القطيعة

وراء الأسوار، تجد أن المدينة (المهيبة)، كما هي. جدّت فيها أشياء تراها، وأشياء تكتشفها بالتدريج. قامت صروح من الزجاج ما كان لها أن تقوم، وانهدّت معالم أثرية ما كان لها أن تنهدّ.

جسر جديد هنا، وشارع هنا، وشركات وملاءٍ وبنوك. أكل الإسمنت مساحات أخرى من الأرض الخضراء. إنما روح المدينة صامد خالد، يتغذى من منابع جوفية غامضة، تأتي من بعيد. من أقصى جنوب الوادي، ومن الصحراء العربية على الجانبين.

البحر المتوسط غير بعيد، لكنه عالم آخر إضافي، تصل نسماته إلى المدينة الأمّ (مسْوراتْ)، حين تتعاكس تهابُّ الرياح. إنما الريح في الأصل جنوبية، تهبّ من الصعيد، وصعيد الصعيد.

في فندق (المريديان) الذي أنزل فيه منذ أكثر من عشرين عاماً، وجدت أناساً أذكرهم ويذكرونني. رحّبوا بي وأحسنوا استقبالي. جلست على الشرفة قبيل طلوع الفجر أنظر إلى النهر كأنه بحيرة.

كأنه المنبع والمصب. يا لها من مدينة! العمارات غرقى في الضباب، لا ترى غير أعاليها فإذا أنت أمام لوحة رسمها (مونيه).

ثم تعالت أصوات الأذان مع الفجر، ذات اليمين وذات الشمال ومن الشرق والغرب، فكأن الصوت نهر آخر، أخٌ لنهر النيل، ظل يتدفّق عبر القرون، يسقي أشياء عزيزة يمنعها أن تموت.

كيف أُقيمت الأسواق وغُلّقت الأبواب؟ ولماذا نُودي اهبطوا مصر فلّما جئنا قيل لنا أن النداء كان لقوم آخرين؟

حتى في أيام القطيعة الكبرى لم نتوقّف عن المجيء. يومئذٍ وقف الشعب السوداني كله مع مصر، ليس لأنه كان مؤيداً لسياستها، ولكن لأنه أحسّ أنها في محنة.

الشعب السوداني أكرمْ به من شعب في أوقات الشدة. نعم الجار والشقيق لمصر حين تكون في محنة.

لكنه هو نفسه اليوم في محنة، فهل مصر تؤاخذه بذنوب حكّامه؟

سئمت ذلّ الانتظار عند باب الأحباب، توقفت عن المجيء منذ أكثر من عامين.

سئمت هوان السؤال، وطول المطْل. بلى، المحبّ يلزمه الصبر، ولكنّ الصبر قد ينفد، والقلب قد يسلو.

ونحن لا نطلب شيئاً. نريد صلة الرّحم وتأدية الحقوق، لا أكثر.

كانت هذه زيارة طارئة، لم تكن في الحسبان. ولولا وساطة الأخ الكريم محمود عطا الله، وشهامة الوزير المفوّض في سفارة مصر في لندن، السيد جهاد ماضي، لعل الأبواب كانت تظل مغلقة إلى اليوم.

ما أكرم مصر... وما أبخلها! ونحن نرضى منها البخل، لأننا طالما عرفنا منها الكرمَ!

١٤

زيارة الأحباب في زمن القطيعة

هبّت على نزل (المريديان) - كما هبّت على المدينة - رياح الخماسين. خماسين الانفتاح والثروات العشوائية والسيارات الفارهة المستوردة، والنساء في الأزياء الباريسية والحلي والعطور، كأنهن أزهار مصطنعة. مهرجان في غير أوانه وغير مكانه.

المدينة الصابرة، سوف تصمد، كما صمدت لزوابع كثيرة عبر القرون. مرّت كلها ولم تترك إلّا آثاراً لا تكاد تُرى.

أيام كان ملْكاً للدولة وتديره الخطوط الجوية الفرنسية، كان نُزلاً هادئاً منقطعاً بموقعه الفريد على النهر، كأنه في جزيرة. وكان أرخص من بقية الفنادق. وجدته قد تغيّر. ألبسوا العاملين أزياء جديدة، وبدّلوا ستائر الغرف، ورفعوا الأسعار. عكّروا صفو أمسياته الهادئة الجميلة. في كل ليلة زفّة وعرس على بحيرة السباحة حتى شروق الشمس.

والموسيقى التي تصكُّ سمع الليل والنهر، لا هي (جاز)، تُميِّز أنه جاز، ولا هي طرب شرقي تميّز أنه طرب. وأصوات المغنّين، كأنهم لم يبلغوا الـحُلُم مثل مايكل جاكسون. والأضواء الملوّنة تومض وتبرق فتخلق مناخاً هستيرياً، وذلك هو القصد. والرجال والنساء في حلبة الرقص على ضفة النهر العابد، في غمرة تلك الأضواء والضوضاء، كأنهم في واد غير وادي النيل.

هذا زمان آخر، يطلب أناساً من شاكلة أخرى، وأرجو ألّا يحصل عليهم.

ثم تنطلق نداءات المؤذّنين للفجر، ذات اليمين وذات الشمال، من الشرق والغرب، فإذا هي كاستغاثات غرقى، لا تكاد تبين في جلبة الدفوف والمزامير والطبول.

وربما من سخريات الأمور، أننا عملنا ندوات تلفزيونية عن (الحداثة) في ذلك الجو، وهو سبب مجيئي إلى القاهرة على عجل، وحصولي على فيزا كما وصفت. فيزا للسوداني لدخول مصر! إنما لعل لأخواننا المصريين بعض العذر، فجماعتنا عند ملتقى النيلين يخبطون خبط الجمل الأعمى. صادروا ممتلكات مصر، وأغلقوا دور العلم التي بنتها، وبلغوا في القطيعة حدّاً لم يبلغه أحد قبلهم. ولو أن مصر لم تستجب لاستفزازهم، لكان ذلك أشبه بطبعها. أما وقد اختارت أن تردّ صاعاً بصاع، فذلك حقّها. لولا أن المتضرّر هو الشعب السوداني، وليس حكّامه. وهو شعب أبداً لم يفرّط في حب مصر.

هذا وقد سعدت بصحبة أولئك الأساتذة الأقطاب. الدكتور ناصر

الدين الأسد الذي نظّم للحوار وأداره، والدكتور شكري عيّاد والدكتور عبد القادر القط. رجال مُغْرِقون في العلم، حين تتحدّث إليهم، ترى عالماً رصيناً مليئاً بالحكمة، أبعد ما يكون عن العالم الذي يصلك على دقّات الطبول من بحيرة السباحة.

هل الزمان أصابه الخبل، أم أنا وأمثالي لم نعد نصلح لهذا الزمان؟

ثم وجدت رهطي الأوّلين. آه! منذ كم وأنا أغدو وأروح؟ تتغير الحكومات والإجراءات والقوانين. أحياناً يُسهل الدخول وأحياناً يصعُب. أحياناً تصفو المياه بين الحكومات وأحياناً تتعكّر. وأنا وأمثالي لا نكفّ عن المجيء، مذعنين لنداء أقوى من الحكومات والقوانين.

آه يا أمّ عمرو! كيف ضاعت كل تلك الأعوام؟ وهل إلى مردّ من سبيل؟

وجدتُهم كما عهدتُهم، إلّا من غبار خفيف نثرته الأيام على وجوههم. إنها وعثاء السفر، وكلّنا على سفر.

محمود سالم وصلاح أحمد محمد صالح ورجاء النقاش وعبد المنعم سليم وحازم هاشم وجمال سليم. عبد الرحيم الرفاعي شيّع شقيقه وعاد حزيناً من سويسرا قبل وصولي.

سهرنا مع حسين أحمد أمين في مصر الجديدة، وعدتُ جمال الغيطاني في أطراف المعادي، بعد عملية القلب التي أجريت له في أمريكا، وتغدّيت مع سامح كُريم وسكينة فؤاد في «دار الأهرام».

كان الوقت ضيّقاً لم يمكنّي من رؤية كل من وددت رؤيتهم.

لكن لا بأس. هذا خفّ شعر رأسه قليلاً، وهذا علاه الشيب أكثر. هذا زاد وزنه قليلاً، وهذا خفّ وزنه قليلاً. هذا صار جَدّاً، وهذا يوشك أن يصير. هذا يشكو من وجع المفاصل، وهذا من وجع الظهر. إنما هم على وجه العموم متماسكون، لم يفقدوا قدرتهم على الضحك والدعابة.

وفي دار محمود سالم أنشدنا عبد الرحمن الأبنودي من شعره البديع بصوته الصعيدي الجنوبي (الأجَشّ). ومن بعض ما أنشدنا قصيدته «الخماسين» التي يقول فيها:

في المَفْنى ليّلْنا وقبّلنا.
خماسين شديدة وأحْنا ميّلْنا.
إيه كان وقف على حيله
لما أحنا نقف على حيلنا؟

لكن لا بد، وعبد الرحمن الأبنودي هو نفسه صاحب القولة المأثورة:
«علينا عدم السقوط ... بقدر الإمكان!».

١٥

معهد العالم العربي في باريس (١)

أُتيح لي منذ بضعة أسابيع أن أجدد العهد بباريس، وأنا مدين لمعهد العالم العربي، ممثّلاً في مديره العام الدكتور محمد بنّونة، والدكتورة ماجدة واصف المسؤولة عن النشاط السينمائي في المعهد، والدكتور فاروق مردم المسؤول عن النشاط الأدبي، إضافة إلى أنه يشرف على سلسلة الكتب العربية المترجمة إلى اللغة الفرنسية في دار النشر المعروفة (آكْتْ سود).

هذه المدينة الفاتنة، اشتهرت طوال تاريخها كما هو معروف، بالحفاوة بالأدب والفن والفكر، ربما أكثر من أي مدينة في العالم، فلا عجب إن ارتفع فيها ذلك الصرح الثقافي الضخم على الضفة اليسرى لنهر الـ «سين»، غير بعيد عن الحي اللاتيني وجامعة السوربون.

معهد العالم العربي في باريس، مشروع ثقافي طموح قام بالتعاون بين الحكومة الفرنسية والدول العربية. وكانت الحكومة الفرنسية سخيّة في دعمها، فقد تبرّعت بالأرض في ذلك الموقع الحيوي في المدينة، وساهمت في التمويل، وهي تساهم الآن بالجزء الأكبر من الموازنة السنوية للمعهد.

صار معهد العالم العربي من السّمات اللافتة للنظر في هذه المدينة المجلوّة دائماً كأنها عروس، يجذب إليه أعداداً غفيرة من أهل باريس وزوّارها.

روعي في البناء أن يكون تحفة معمارية تليق بالمدينة، فهو يجمع في نسق متآلف بين الحداثة المفرطة والعراقة العربية الإسلامية. تراه من الخارج مُغَلّفاً بغلاف زجاجي، ولكن الزجاج منقوش ومُحَلّى بطريقة بديعة، توحي لك بالمشربيات والكوى والشبابيك في الأحياء العربية العتيقة. وحين تدخل تجد في الباحات والقاعات والأروقة والمصاعد والمكاتب، أصداء واضحة من الحداثة التي تجدها في مركز (بمبيدو).

البناء في حدّ ذاته، يفصح عن معان ذات دلالات بعيدة، كما يفعل دائماً الصرح المعماري الذي تكتمل فيه الصفات الجمالية المطلوبة، كأنه سمفونية موسيقية أو لوحة فنية أو قصيدة شعرية.

كان أول مدير له الدكتور باسم الجسر من لبنان، وكان له فضل وضع الأسس وبلورة الرسالة الحضارية للمعهد. ومديره الحالي، الدكتور محمد بنّونة من المغرب. ورئيس مجلس الإدارة فرنسي هو (مسيو كميل كاهانا).

منذ أن قام المعهد وهو يعمل بحيوية كبيرة في شتى مجالات الثقافة العربية على اتساعها وتنوُّعها، وذلك بهدف فتح الطريق أمامها كي تدخل في تيار الثقافة العالمية، تؤثر عليها وتتأثر بها. وهذا في حد ذاته مَطْمحٌ جليل، نظراً لما نعلم عن العقبات التي وُضعت أمام هذه الثقافة الكُبرى من ثقافات العالم ـ لسبب أو لآخر ـ لحرمانها من أداء الدور الذي هي جديرة به.

ويحمد لمعهد العالم العربي، أنه دائماً يربط بين ماضي الأمة العربية وحاضرها. يلفت النظر إلى الآثار والحضارات القديمة في المنطقة ـ كما فعل في المعرض الرائع عن سورية ـ وفي الوقت نفسه يهتم بالسينما العربية ـ كما حدث في مهرجان السينما المصرية ـ ويقيم معارض للفنانين العرب، وحفلات موسيقية، ومحاضرات وندوات فكرية وأدبية إلى غير ذلك.

ولا يخفى أن الهدف من وراء ذلك كله، يتعدى الأهداف الدعائية القصيرة الأجل، التي قد تُغري بعض الدول.

ولا يخفى كذلك، أن نشاطات المعهد تضيق وتتّسع حسب الموارد المتاحة، وليس سرّاً أن بعض الدول العربية، فَتَرَ حماستها في السنوات الأخيرة لهذا المشروع الثقافي العظيم، ربما لأنها ظنَّت أنها لم تحصل على المردود الإعلامي الدعائي السريع الذي كانت تطلبه.

١٦

معهد العالم العربي في باريس (٢)

من كان يظن أن صوت الماحي بن محمد بن الشيخ المعروف بـ (حاج الماحي) سوف يصل بعد أكثر من مائة عام إلى ضفاف الـ (سين)؟ ذلك العاشق الـ (سنّاري) المتيّم، الذي منّ الله عليه، فانصرف ـ بعد حياة اللهو ـ إلى مديح الرسول صلى الله عليه وسلم، فأصبح مثل البرعي والبوصيري:

عيب شبابي الما سَرَح
واللهِ لأب شوقاً جرحْ
قام العبيد من نومه صَحّ
لقي جنْبهُ لبناً في قدحْ
سَمّى وشربْ زين أتنتحْ
حمد الإله حاله انصلحْ
جَد في السؤال لي ربّه لحْ
قال يا كريم بابُه انفتحْ

منذ أسابيع في معهد العالم العربي في باريس، وقف أحفاده في فرقة من المنشدين، في قاعة امتلأت بالناس، بينهم عدد كبير من الفرنسيين، كان ذلك ضمن نشاطات متعددة عن السودان.

وقفوا على المسرح في جلاليبهم البيض وعمائمهم، وعباءاتهم، يضربون على دفوفهم، وينشدون من شعر (حاج الماحي)، بتلك الأصوات الريّانة المعتّقة، المملوءة بالشجن والحبور والحزن، كأنها أنهار تتدفق من منابع سحيقة في أعماق التاريخ:

أعـــطـــوه تُـــفـــاحـــات بـــلـــح
حـــين ذاقـــا قـــالْ دمّـــاعـــه تَخْ
راذْ لـــه الجلـــيـــل قـــلـــبُـــه انـــشـــرح
طـــابْ عـــقـــلُـــه مـــســـروزْ بـــالـــفـــرح
جـــاب لـــي شـــفـــيـــع الـــنـــاس مـــدَحْ
طـــارةَ الـــهـــبـــيـــش دقّ ونَـــبـــحْ
الـــسِّـــمـــعُـــه فـــي جـــوفـــه انجـــرحْ
مـــن شـــوق حـــبـــيـــبـــه يـــســـوّي أح

نظرت حولي إلى الفرنسيين، وقد استخفهم الطرب. بعضهم كأنهم في غيبوبة، وبعضهم يتمايلون مع دقات الدفوف (الطار). يا سبحان الله. إنها بركات (حاج الماحي)، وبركات الطاقة الضخمة من الحب، التي عبّر عنها منذ أكثر من مائة عام في قرية (الكاسنجد) على ضفة النيل.

تخطّت أسوار الزمان والمكان، وعبرت حاجز اللغة، وحرّكت أفئدة الفرنسيين في باريس. ومن يدري. لعل واحداً منهم أو أكثر

يستجيب لنداء الحب العظيم، من ذلك المحب الفذ للرسول الكريم.

هذا، وقد تضمن البرنامج أيضاً، حفلات موسيقية وعروضاً فولكلورية، أظهرت التنوع الكبير في الموسيقى السودانية والفنون الشعبية. فعلى سبيل المثال، تجد تأثير الموسيقى المغربية والأندلسية واضحاً عند الفنان عبد القادر سالم من أقصى غرب السودان.

ثم الفنون الأفريقية الخالصة، كما يظهر في رقصات قبائل الزاندي والشلك والدنكا والنوير، من جنوب السودان.

مثّل الغناء الحضري من وسط السودان، عميد الموسيقى السودانية، الفنان الموهوب الأستاذ عبد الكريم الكابلي. ومثّل غناء (الطنبور) من منطقة الشمال الأوسط الفنان محمد جباره. كذلك تضمن البرنامج عروضاً فولكلورية من قبائل البجة في الشرق، ومن منطقة (النوبة) في أقصى الشمال. وقد وجدت فرقة (عقد الجلاد) ـ وهي فرقة من الشباب ـ إقبالاً عظيماً من الجمهور، لتنوع عرضهم، وتجاربهم الجريئة في تقديم الفن الغنائي السوداني، قديمه وحديثه.

لم يغفل البرنامج النشاط المسرحي، فقدمت فرقة من المسرح القومي السوداني عدداً من العروض المسرحية. وكان نجم تلك العروض عميد المسرح السوداني علي مهدي، الذي اكتسب شهرة عالمية لدوره في فيلم «عرس الزين» الذي أنتجه المخرج الكويتي خالد الصديق.

تزامنت تلك النشاطات كلها، مع معرض عن الحضارة السودانية على امتداد أكثر من أربعين قرناً بعنوان «ممالك على النيل». هذا

معرض فريد في نوعه بحق، حشدت له تحف أثرية لم يجتمع مثلها من قبل في مكان واحد. جيء بها من متاحف السودان وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وبولنده وسويسره وغيرها.

تعرض تلك التحف الأثرية النادرة عرضاً جذاباً في قاعات واسعة، تتيح لكل قطعة حيّزاً مناسباً للتأثير على الناظر، ذلك بالإضافة إلى شروح وافية مكتوبة وأفلام وتسجيلات صوتية.

أصدرت مجلة «باري ماتش» الواسعة الانتشار ملحقاً خاصّاً بهذا المعرض الرائع، الذي ما يزال يجذب إليه مئات الزوار كل يوم، وسوف يستمر إلى شهر آب/ أغسطس.

كذلك أصدر معهد العالم العربي سفْراً ضخماً عن المعرض، هو في حد ذاته تحفة فنية، وذلك لكثرة الصورة التي ضمّها الكتاب، وجمالها، والمقالات القيمة بأقلام عدد من علماء الآثار المرموقين، من فرنسا والسودان وألمانيا وإيطاليا وغيرهم.

ذلك كله، يروي قصة الممالك السودانية على ضفتي النيل، منذ مملكة كرمة (٢٥٠٠ق.م) والحكم المصري للسودان (١٥٤٠ق.م)، مروراً بمملكة نَبتا (١٠٠٠ق.م) إلى مملكة مَروي (٦٥٠ق.م)، ثم المؤثرات اليونانية والممالك المسيحية السابقة مباشرة لدخول الإسلام.

إنها قصة مثيرة تشبه قصة الحضارة المصرية القديمة ولكنها تختلف عنها أيضاً، فهذا المعرض يوضح - كما لم أرَ مثيله من قبل - التفاعلات المستمرة بين شقي وادي النيل، وعوامل المدّ والجزر بينهما. وهو يؤكد فكرة ليست شائعة، أن الحضارة السودانية

القديمة، لم تكن محض ظل للحضارة المصرية، تأخذ منها ولا تعطيها شيئاً، بل كانت تتأثر بها وتؤثر عليها أيضاً، في تفاعل مستمر كما يحدث بين الحضارات الخلاّقة.

هذا جهد عظيم بحق يشكر عليه معهد العالم العربي في باريس. وهو، كما قلت، صرح «ثقافي»، يستحق من العرب كافة ـ حكومات ومؤسسات وأفراداً ـ أن يدعموه دون قيد أو شرط، لأنه يعمل في مجال التفاعل الحضاري والثقافي، وهو مجال يستطيع العرب أن يساهموا فيه بأكبر قدر، ويحدثوا بواسطته أعظم الأثر.

١٧

بين الأكبريين في أوكسفورد! (١)

عجيب كيف أن شيئاً يقود إلى شيء، وطريقاً يؤدي إلى طريق.

لقيت في باريس صديقي الرسام السوداني المعروف الدكتور راشد دياب، وهو شاب واضح الموهبة، تخرج من كلية الفنون في الخرطوم، وحصل على شهادة الدكتوراه في الفن من جامعة مدريد، حيث صار أستاذاً، وهو الأجنبي الوحيد الأستاذ في جامعة مدريد.

عرّفني بشاب إسباني اسمه «بابلو بنيتو» هو أيضاً أستاذ في جامعة مدريد.

جلست معه ذات صباح في مقهى على ساحة «بلاس شارل ميشيل»، في الحي الخامس عشر، غير بعيد من نهر الـ «سين». اكتشفت أنه مسلم، ويتحدث اللغة العربية بفصاحة غير عادية. كان

وجهه مضيئاً بحبور عجيب، وعيناه الفاحمتا السواد. يبتسم كثيراً ويضحك. من أين يستمد كل تلك السعادة؟

أهدي إليّ ترجمته إلى اللغة الإسبانية لكتابين للشيخ محيي الدين ابن عربي، هما كتاب «مشاهد الأسرار القدسية ومطالع الأنوار الإلهية» وكتاب «كشف المعنى عن سرّ أسماء الله الحسنى».

مضينا نتحدث باللغة العربية فعلمت منه أنه أصلاً من مدينة «مرسيا» حيث ولد الشيخ محيي الدين عام ١١٦٥م، في عهد الخليفة المستنجد بالله، وكانت المدينة في ذلك العام محاصرة من قبل الموحدين الذين فتحوها في ما بعد وأخضعوها لحكمهم.

سألت «بابلو بنيتو» كيف اعتنق الإسلام، فأخبرني أن تعمّقه في دراسة اللغة العربية والفكر الإسلامي، خاصة فكر الشيخ محيي الدين بن عربي، هو الذي هداه إلى الإسلام وقال:

«كثيرون في العالم شرقاً وغرباً.. في إسبانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا وهولندا وبلاد إسكندنافيا وأمريكا واليابان وغيرها، اهتدوا إلى الإسلام بواسطة الشيخ محيي الدين».

أخبرني أنه ينتمي إلى جمعية من العلماء والباحثين تسمى «جمعية ابن عربي»، مقرها جامعة أكسفورد، وأنها تعقد اجتماعها السنوي في الأسبوع التالي للقائنا في كلية «سانت هيوز» وقال: «إذا جئت إلى أكسفورد فسوف تجد عدداً من الأكبريين».

قلت له «وما الأكبريون»؟ فأجاب:

«تلاميذ الشيخ الأكبر، ابن عربي، ومريدوه».

● وهل أنت من الأكبريين؟

قال ضاحكاً:
ـ أنا من الأصغريين، اسمي «بابلو» معناه بالإسبانية «الصغير».

إنني لا أعرف إلّا القليل عن فلسفة هذا المفكر الكبير، الذي لم يزل يؤجج الجدل منذ القرن الثاني عشر، ويجذب إليه أشدّ العداوة وأشد الحب. قرأت بمشقة كتابه «خصوص الحكم» وشروح الدكتور أبي العلاء عفيفي له. والدكتور أبو العلاء نال شهادة الدكتوراه من جامعة كيمبردج عن ابن عربي. وقرأت بعض تفسيره للقرآن الكريم. وحاولت قراءة كتابه «الفتوحات المكية» فاستعصي ذلك عليَّ لما وجدت فيها من غموض ميتافيزيقي، وتجليات عسيرة المنال للناس العاديين. قلت لـ«بابلو»: «ما قولك في ما ذهب إليه الدكتور أبو العلاء عفيفي أن ابن عربي كان يؤمن بمذهب «وحدة الوجود»، وهذا بطبيعة الحال يؤكد تهمة الأقدمين له أنه ابتعد عن طريق أهل السنّة؟».

قال «بابلو»:

«هذا ليس صحيحاً. الدكتور أبو العلاء، والأقدمين الذين سماهم ابن عربي (علماء الرسوم) أخطأوا فهم الشيخ الأكبر. كان ابن عربي مسلماً سنياً محضاً. ولعلك تعلم أنه كان يميل إلى المذهب الظاهري وكان شديد الإعجاب بابن حزم. كان يلح في كل ما قاله وكتبه على التمييز الواضح بين الله سبحانه وتعالى وبين

مخلوقاته.. بين «الربوبية» وبين «العبودية». الذي قاله الشيخ إن المخلوقات جميعها تتحد في عبوديتها لله سبحانه وتعالى.

هذا بعيد جداً عن مذهب «رحلة الوجود».

مضينا نتحدث أكثر من ساعتين في ذلك الصباح الباريسي الجميل، وكان وجه «بابلو» يزداد إشراقاً، ولغته العربية تزداد تدفقاً.

يا للغرابة! إنني ولدت في العربية والإسلام، ونشأت. وها أنذا أجلس قبالة «مسلم» و«عربي»، جاء من بلاد الغرب، بعد أن أطفئت الأنوار وصمتت المآذن بنحو ثمانية قرون.. أجلس معه مجلس التلميذ من الأستاذ.

هذا طراز جديد، ومثله كثيرون كما اكتشفت من حضوري لاجتماعهم في أكسفورد. عربي كفاحاً وبمحض اختياره. ومسلم كما هداه اجتهاده وتقفّيه آثار شيخه. فهل نتفرج، ونعده «أخاً»؟ أم نسأل أشياخنا إن كان يستحق أن تفتح له الأبواب ويؤذن له بالدخول؟

١٨

بين الأكبريين في أكسفورد! (٢)

شددتُ الرحال إلى (أكسفورد) ـ وذلك هو التعبير المجازي الذي يقتضيه واقع الحال إذ إنني أعود القهقرى إلى ديار الأندلس في القرون الوسطى. ولم يغب عني وجه الطرافة، بل الغرابة في تلك الرحلة، كونُ ذلك المفكّر المسلم المحيّر، الذي لم يزل وضعه قلقاً في بلاد الإسلام، قد اقتحم هذا الحصن العلمي العتيد، الذي نهض في القرون الوسطى أصلاً ليكون قلعة من قلاع اللاهوت المسيحي.

حتى المكان، كلية (سانت هيوز)، يحمل اسم قديس نصراني. إنما لعل ذلك شأن الشيخ الحاتمي الطائي ـ كما كان يصف نفسه ـ منذ أن قال قولته الشهيرة، التي أزعجت كثيرين، وأسعدت كثيرين:

«لقد صار قلبي قابلاً كل صورة..».

سوف أشدّ رواحل الخيال مراراً خلال اليومين اللذين أقضيهما مع (مُريديه)، أنزل وأرحل مع الشيخ محيي الدين بن عربي، في أسفاره الطويلة العجيبة في أقطار الدنيا، وهو إنما يسافر في أقطار نفسه.

من (مُرْسيا) إلى (إشبيلية): ومن محيي إشبيلية إلى قرطبة، حيث لقي فلْتة زمانه، أبا الوليد ابن رشد.

تمّ اللّقاء بطلب من ابن رشد بما سمع عن ابن عربي، وكان صديقاً لوالده. كان ذلك في نحو عام ١١٨٠، وكان الشيخ محيي الدين حينئذٍ لم يتجاوز خمسة عشر.

دخل الصبي على الشيخ الجليل، قاضي قرطبة، ومستشار السلطان أبي يعقوب يوسف وطبيبه ـ الرجل الذي وُصف بأن أرض الأندلس لم تعرف أحداً مثله في ذكائه وعلمه وحسن خلقه، وأنه كان في الفلسفة والطب، مثْلَه في الفقه وعلوم اللغة والأدب، بحراً عميقاً واسعاً.

وقف الشيخ للصبي وهشّ له وعانقه. ثم تفرّس فيه مليّاً وقال (نعم). فقال ابن عربي (نعم).

ويروي ابن عربي نفسُه قصة ذلك اللقاء، فيقول إن وجه ابن رشد تهلّل فرحاً لأن الصبيّ قد فهم قصده. حينئذٍ قال ابن عربي (لا)، فاربدّ وجه ابن رشد، واستوضح ابن عربي، فقال له:

«بين (لا) و(نعم)، تتطاير أرواحٌ عن أجسادها، وتنفصل رؤوس عن رقابها».

حينئذٍ ـ كما روى ابن عربي ـ أخذ ابن رشد يرتجف ويردد «لا حول ولا قوة إلّا بالله».

في عام ١١٩٨م (٥٧٥هـ) شهد ابن عربي وفاة ابن رشد في مراكش، وكان معه صديقاه أبو الحسين محمد بن جبير، وأبو الحكم عمرو بن السرّاج. نظر ثلاثتهم إلى جثمان ابن رشد يوضع على بغل (أو حصان) ليُحمل إلى قرطبة ليُدفن. وُضع الجثمان على جانب، ووضعت كتُب ابن رشد على الجانب الآخر لتَعْدل الجثمان.

تعجبوا كلُّهم من المشهد، وظلوا صامتين حتى قال ابن عربي:

«جثمان الأستاذ على البغل في جانب وكتبه في الجانب الآخر! يا ليت شعري هل وجد ما كان يبحث عنه؟».

كان ابن رشد يعتمد في بحثه، على العقل والمنطق والبرهان. وكان ابن عربي يعتمد على (الذوق) والإشراق والتجلي، خارج نطاق العقل والحواس. فهل عنى أنه وابن رشد، مثل الحمْليْن المتعادليْن على ظهر البغل؟ أم أنه قصد أن كُتب ابن رشد وعقله وفلسفته، لم توصِّلْه إلى شيء؟

بعد ذلك، أسفارُه إلى فاس وتلمسان ومراكش وتونس والقاهرة ومكّة المكرّمة والمدينة المنورة، وأخيراً إلى دمشق حيث وافته المنية عام ١٢٤٠م.

هذا (العبقريّ الروحاني)، كما وصفه (هنري كوربان) الذي كان

أستاذاً للعلوم الإسلامية في جامعة الـ (سوربون) ـ وهو أحد الأكبريين ـ كان في سفر متواصل وبحث دائب، فهل ذلك هو الذي جذب إليه هؤلاء العلماء، (الباحثين) المجتمعين هنا في أكسفورد؟ ما الذي وجدوا عنده ولم يجدوه عند غيره من فقهاء المسلمين؟

إنهم، على أي حال، سعداء بما هداهم إليه شيخهم الأكبر محيي الدين بن عربي، ذلك واضح على وجوههم. تلك الطمأنينة وذلك الحبور الداخلي، كما رأيت في باريس، على وجه (بابلو بنيتو).

بين الأكبريين في أكسفورد! (٣)

وجدتُ قوماً تحيّتهم (سلام). مسلمون كلهم أو جُلُّهم. إنجليز وأمريكان وإسبان وفرنسيون وألمان وسويسريون وإسكندنافيون وما شئت من أجناس. أبداً لم ألتق من قبل، مسلمين أوروبيين بهذه الكثرة في صعيد واحد.

استقبلوني بترحاب عظيم، مليء بالدفء وخال من التكلف، وقد لفت انتباهي من أول وهلة، بساطتهم وسماحتهم، رجالاً ونساء. وكان (بابلو) الذي كأنما عرفته من زمن، يعرّفني بهم.

ألحّوا أن أنزل ضيفاً عليهم في كلية (سانت هيوز)، لكنني أبيت، إذ إنني لم أكن عضواً في جمعيتهم. ولعلّي أيضاً، بحذري السُنّي المالكي، لم أشأ أن أُلقي بنفسي ضربة لازب في غمار جاذبية شيخهم العتيد، كأنني أردتُ أن أجعل مسافة بيني وبينهم.

سرعان ما أدركت أن ذلك الحذر لم يكن له أي مبرّر. أدركت أن (التبشير)، وإغراء الآخرين إلى وجهة نظرهم، ليس من همّهم وليس في طبعهم. ليس فيهم أي شيء من (روح القطيع). كلهم علماء، وكل واحد منهم وصل إلى حمى (الشيخ) بمحض إرادته.

وقد عجبت أيضاً، أنهم خالون بالمرة من إحساس التوتر الذي تجده لدى المتحوّلين حديثاً إلى دين أو مذهب، بل حتى بعض الذين وُلدوا في ذلك الدين ـ كأنهم يخافون أن يرتدّوا على أعقابهم في أية لحظة.

هؤلاء بدوا لي ساكنين مطمئنين، كأن الإسلام هو دينهم الطبيعي منذ البدء، وكأن طريق (الشيخ)، هو طريقهم الطبيعي. ولا أنكر أنني آنست إليهم ـ رغم المحاذير التي أخذتها عن أشياخي المالكيين ـ فقد ذكّروني ببعض عباد الله الذين عبرتُ بهم، من (الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً).

يبدأون محاضراتهم بالحمد، ويختمونها بالصلاة على النبي الكريم. وكان موضوع اجتماعهم كله (مفهوم الحمد عند ابن عربي).

كنت أحضر معهم عشاءهم بعد المحاضرات في المساء، فقد أبوا أن يُعفوني من ذلك. كان طعامهم بسيطاً، وحديثهم خليطاً من العلم والدّعابة. جلست في اليوم الأول بجانب (برفسور أرْل كلَر)، وهو سويسري كان إلى عهد قريب أستاذاً لتاريخ الأديان في جامعة (لوزان)، وقد أمضى ردحاً من عمره في دراسة أعمال ابن عربي. كان من القلائل غير المسلمين في ذلك الجمع، ورغم ذلك في سمته ما يدلّ على أنه لم يخلُ من نفحات (الشيخ).

كان موضوع محاضرته في الصباح «الحمد وسيلة إلى القُربى إلى اللّه عند ابن عربي». ومن بعض ما ذكر، أن شعر ابن عربي الصوفي يدل على مؤثرات مسيحية وهندوسية. تحدّث عن آلام الفراق والوصال في المثلوجيا الهندوسية، وما أسماه «ألاعيب الغرام عند كرشنا».

قلتُ له خلال الحوار الذي أعقب المحاضرة:

«لماذا تذهب بعيداً إلى المسيحية والهندوسيّة؟ ألا ترى أن الشعر الصوفي العربي، وحتى الفارسي، بما في ذلك شعر ابن عربي، متأثر أساساً بشعر الغزل العربي، وخاصة شعر العُذريين؟ حتى اسم (ليلى)، كما في شعر قيس، يتردد كثيراً في الشعر الصوفي؟».

وقد حضرتني في تلك اللحظة أبيات من قصيدة الشهرزوري:

لمعت نارها وقد عسعسَ اللّيلُ
وضلّ الحادي وحار الدّليل
فتأمَّلتُها وقلتُ لصحبي
هذه النّارُ نارُ ليلى فميلوا

حين أنشدت الأبيات، سمعت أصواتاً في القاعة تقول «آه! آه!». لم يكن ذلك ـ طبعاً ـ بسبب جمال صوتي أو حسن إنشادي، إنما لموسيقى الشعر العربي، ووقع اللغة العربية (الشريفة) على تلك الآذان المرهفة. نحن ننسى، كم هي شريفة هذه اللغة حتى نرى تأثيرها على مثل تلك الأفئدة.

قال لي (برفسور كلر)، أن كلامي بعد المحاضرة قد أعجبه وأنه سوف يعيد النظر، وأطراني بما يوحي بأنني (عالم!). أضحكني ذلك جداً، لأنني كنت أعرف كم أنا (جاهل) بالمقارنة مع أولئك العلماء الجهابذة. كأنهم قرأوا كل شيء، وكل واحدة أو واحد منهم، يحسن خمس أو ست لغات على الأقل.

كانت الدكتورة (سيسيليا توتْش) من جامعة أكسفورد، تتابع هذا الحديث، وهذه مسلمة وتحسن اللغة العربية، وقد قضت عمرها في دراسة ابن عربي وترجمته، وكذلك زوجها. قالت:

«كنت أتمنى لو أنشدتنا أكثر. ما أجمل موسيقى الشعر العربي! هل تنشدنا شيئاً الآن؟».

عنّتْ لي حنيئذٍ تلك الأبيات التي رووا أن الحلاّج أنشدها حين ساقوه إلى الصلب، وهو يتمايل طرباً:

نـــديمـــي غـــيـــرُ مـــحـــمـــولٍ
عـــلـــى شـــيء مـــن الحيْـــفِ
دعـــانـــي ثـــم حـــيّـــانـــي
كـــفـــعـــل الـــضـــيـــف لـــلـــضّـــيـــف
فـــلـــمّـــا دارت الـــكـــأسُ
دعـــا بـــالـــنّـــطْـــع والـــسّـــيـــف
كـــذا مـــن يـــشـــرب الـــرّاحَ
مـــع الـــتنّين فـــي الـــصـــيـــف

قالت السيدة (آه!)، فهو شعر رائع حين تحمله على محمل الشعر

البحْت، وتبعده عن أحابيل فكر الحلاّج. ولا أدري كيف يرى أشياخي المالكيون!

بين الأكبريين في أكسفورد! (٤)

عجبت لقول الدكتور (جرالد إلمور Gerald Elmore) أنه لا يقرأ بتاتاً لأي أحد غير الشيخ محيي الدين بن عربي. وله رأي مكتوب، يقول فيه:

«في كل التراث الفكري للإنسانية.. قليلون جداً، ربما خمسة على الأكثر، من حيث عمق الفكر وجمال اللغة، يمكن أن يوضعوا في مرتبة واحدة مع ابن عربي.. منهم أفلاطون وشيكسبير».

لعل من بعض ما يجذب هؤلاء العلماء إلى (الشيخ)، أنه كان غزير الإنتاج غزارة تدعو إلى الدهشة. وهو إنتاج ربما ليس له نظير من حيث الكَمّ في تاريخ التراث الإنساني. ويقدر بعضهم أنه ألّف زهاء خمسمائة كتاب. وقد أخذ منه كتاب (الفتوحات المكية) وحدَه قرابة أربعين عاماً قبل أن يفرغ منه نهائياً.

إنه عبارة عن غابة من الرؤى والأفكار، واسعة كثيفة متشابكة، يدخل الواحد منهم، فلا يخرج منها. وكل صاحب علم منهم، يجد عند ابن عربي ما يوافق علمه وذوقه ووهواه. الفلاسفة وعلماء النفس والأنثروبولوجيا وعلوم الاجتماع والتاريخ والأديان. هذا بالإضافة إلى أن كل واحد من هؤلاء العلماء، له (رحلة روحانية وجودية)، خاصة به. يجد كأن ابن عربي يصفها له، ويحثّه عليها. يطوّح به من درب إلى درب، ويطرح عليه الأسئلة، ويعطيه الأجوبة، ثم يعمّي عليه الطرق، وينصب له حبائل من الرموز والألغاز، فهو معه في (سفر) متواصل، و(بحث) لا ينتهي.

هذا عينهُ هو الذي أزعج أهل السنّة من ابن عربي، وهو عينه الذي يجذب إليه هؤلاء العلماء الأوروبيين.

هذا العالِم الأمريكي (جرالد إلْمور) محاضر في جامعة «ييل ـ Yale» حيث حصل على شهادة الدكتوراه عن بحثه حول كتاب الشيخ محيي الدين بن عربي (عنقاء مغرب). وقد قضى ثماني سنوات في القاهرة من عام ١٩٧٩ حتى عام ١٩٨٧. وهنالك بدأت صلته بابن عربي.

كان موضوع محاضرته في ذلك الاجتماع «التناقض الظاهري لمعنى الحمد عند ابن عربي مع مذهبه في التوحيد». وهو بحث فلسفي عويص ـ كما بدا لي ـ لا يقلّ صعوبة عن كتابات (الشيخ) نفسه. ولعل الفقرة التالية أقل غموضاً، وهي تلخص رأي الدكتور (إلمور):

«... الجانب الذي أسمّيه جانب النفي في المذهب الأكبري، هو أن المخلوقات لا يمكنها أن «تحمد» الله سبحانه وتعالى... الإنسان، ليس

فقط أنه ليس أهلاً للحمد، ولكنه أيضاً ليس مؤهلاً لأن يحمد الله سبحانه وتعالى.. ولا يستطيع (المحدث ـ المُقيَّد) أن يحمد أو يعرف أو يحب (القديم ـ المطلق) بأي حال من الأحوال.

ومن ناحية أخرى ـ وهو الجانب الإثباتي ـ فإن ابن عربي يقرّ إقراراً كاملاً، أن الكون كله، بالفعل، يسبّح بحمد الله سبحانه وتعالى. الاسم القدسي (الحميد)، لا يعني فقط أن الله سبحانه وتعالى مستحق الحمد، ولكنه أيضاً (حامد)، بمعنى أنه مسبب الحمد بألسنة الحامدين جميعاً، سواء كان الحمد للّه سبحانه وتعالى، أو للناس بعضهم لبعض. إنه هو (المحمود)، حتى إذا توجه أي إنسان بالحمد لأنه إنسان، فهو في كل الأحوال، الحامد والمحمود والحميد، وإليه سبحانه وتعالى يرجع الحمد كله...».

حين عدت إلى نص المحاضرة مطبوعة.. محاولاً استيضاح تلك المعميات، وجدت أن المحاضر يشير إلى قرابة ستين مرجعاً. فبالإضافة إلى آيات القرآن الكريم والأحاديث القدسية والأحاديث النبوية، توجد إشارات إلى ابن ماجة (السنن) والسيوطي والجرجاني والقنوي (إعجاز البيان في تأويل القرآن) وصحيح مسلم والبخاري والترمذي وأبو داود وابن حنبل (المسند) وابن العارف (مجلس المجالس)، هذا بالإضافة إلى كتب ابن عربي ومراجع بلغات شتى.

ألا توجد ثمة مفارقة؟ هذا العلم كلّه وهذه (العقلانية) لفهم مفكر قام مذهبُه برمّته نقيضاً للعقلانية؟ تجربته (الروحانية الوجودية) ـ كما يصفونها ـ لا يمكن قبولها بـ (العقل)، ولكن على طريقة (الشيخ) بـ (الذوق) و(الكشف)، فكيف يتأتى ذلك؟

وقد سألتهم: بما أن تجربة ابن عربي الروحانية من الخصوصية بحيث لا يمكن وصفها بالكلمات، فلماذا لم يلزم الصمت كما فعل بعض (العارفين)؟

أجابني أحدهم - وهو أستاذ في جامعة أكسفورد - بجدية كاملة:

«لأن الشيخ الأكبر (أُمِرَ) أن يتكلم ويكتب». هؤلاء العلماء يقبلون بسهولة هذه (التجليات)، التي نجد نحن صعوبة في تقبّلها. وقد زادني الدكتور (جرالد إلمور) حيرة حين قال في محاضرته:

«رغم أن الشيخ الأكبر كان أستاذاً في البيان العربي، ولكنه أحياناً يلجأ إلى أسلوب معقّد ينفر القارىء غير المتعاطف معه ويثير سخطه. وأنا أظن أن القارىء من كلا المعسكرين - المؤيدين والخصوم - قد يخطىء قصد ابن عربي، ويظن أن المطلوب هو الإيضاح والإقناع. القصد في رأيي أبعد ما يكون عن محاولة الإقناع بالحجة والمنطق.. القصد هو خلخلة الترابط المتعثر، وزعزعة ثوابت الفكر بحيث يطغى عامل الطمس والكشف، ويبتعد العقل عن أنماطه التي اعتاد عليها، ويُقبل على القراءة (بين السطور).

٢١

بين الأكبريين في أكسفورد! (٥)

من بين الفوائد الكثيرة التي خرجت بها من ذلك الاجتماع، كتابٌ أعانني إعانة عظيمة على الاقتراب ـ مجرد الاقتراب ـ من العالم المحيّر للشيخ محيي الدين ابن عربي الذي وصفه برفّسر (رالف أوستن) من جامعة (درَم) في إنجلترا أنه «يقف في مجال الفكر الصوفيّ شامخاً مثل الجبل الأعصم». وقال عنه برفّسر (هنري كوربان) من جامعة باريس «أنه من أعظم مفكري التصوّف، ليس فقط في التاريخ الإسلامي، إنما أيضاً في تاريخ العالم إطلاقاً».

هو إذاً ـ مهما كان موقفنا منه ومحاذيرنا تجاهه ـ ظاهرة عالمية تتضخم أكثر فأكثر يوماً بعد يوم، ولن يُجدينا نحن ـ أهله ومُنْطلقه ـ أن نكتفي بتجاهله واعتباره أمراً طارئاً لا يُؤْبه له.

كانت حياته مزيجاً من النصر والهزيمة. النصر على المستوى

الفردي. عمَّر طويلاً وأنجز مشروع حياته ـ مهما كان رأينا فيه: طوّف بالعالم الإسلامي شرقه وغربه، واتصل بملوك زمانه ومفكّريه وفقهائه ومتصوّفته. أنتج إنتاجاً ربما لم يتيسّر مثلُه لأحد غيره في غزارته وتنوّعه.

حدّق بجرأة عجيبة في أقاليم نفسه وفي أرجاء الملكوت من حوله. حلم أحلاماً لا مثيل لغرابتها، فقد رأى أنه عانق الكواكب وامتزج بحروف الهجاء، وكانت الأحلام لديه هي الحقائق، والحقائق محض خيال.

تزوّج وأنجب وعشق، وأقام (مدرسة) فكرية لم تزل تؤجّج الجدل منذ زمانه إلى اليوم، بين خصوم شديدي الخصام، ومحبّين له أخرجهم الحب عن أطوارهم. وها هو اليوم، بعد نحو ثمانية قرون، يتفجّر مثل نهر جوفي، في أماكن لم تخطر له على بال.

أما على الصعيد العام، فقد كان زمانه محاصراً بالهزائم. بعد خروجه من الأندلس (عام ١٢٠٠م) لم يمض وقت طويل حتى هزم الفرنجة الإسبان جيوش المسلمين هزيمة ماحقة عام ١٢١٣، في معركة (لاس نافاس دي تولوسا)، وفي عام ١٢٣٦ سقطت قرطبة.

ولم يكن حال المسلمين أفضل في المشرق. انفرط عقد الخلافة العباسية، وانقلبت الدولة الأيوبية إلى دويلات هزيلة، واشتدّ ضغط الصليبيين على بلاد الشام. وفي عام ١٢٥٠ ـ أي بعد عشر سنوات فقط من وفاة ابن عربي ـ سلّم الملك الأيوبي الكامل، بيت المقدس للملك الصليبي (فردريك الثاني)، فدخلها دون قتال.

وهكذا نجد أن حياة ابن عربي كانت مليئة بعناصر الدراما والإثارة.

هذا ما يقصّه كتاب الباحثة الفرنسية (كلود أدّاس) وعنوانه «البحث عن الكبريت الأحمر». تقول في المقدمة:

«كان إنتاج ابن عربي كله من بعض وجوهه، سجلاً لتجربته الذاتية ـ مجموعة هواتف ورُؤى وحوارات مع الموتى ومعارجَ ولقاءات غامضة فيما أسماه (عالم الخيال)، ورحلات بين الكواكب في أقطار السموات. وسواء كان ذلك هلوسات إنسان مصاب بالفصام العقلي، كما يرى (أسين بلاسْيوس)، أو تجارب روحية صادقة كما يرى (هنري كوربان)، فإنه.. يجب علينا أن نذكر أن تلك التجارب كانت لدى ابن عربي حقيقة واقعة مثل الأرض التي يمشي عليها».

هذا والدكتورة (كلود أدّاس)، من عائلة كل أفرادها من (مريدي) ابن عربي. هي وأخوتها وزوجها وأبناؤها. وأبوها برفّسر (ميشيل شدكيتفتْش) من أكابر الأكبريين، وقد حضر معنا الاجتماع في أكسفورد.

كان لسنوات طويلة أستاذاً في معهد الدراسات العليا في العلوم والاجتماع في باريس. وله دراسات عديدة عن ابن عربي، تُعدّ كلها مساهمات مرجعيّة عن فكر الشيخ محيي الدين.

تقول الدكتورة (كلود أداس):

«حاولت قدر طاقتي، أن أسير وراء ابن عربي في دروب ومجاهل لا

يُجدي فيها الاستعانة بالبوصلة. كثيراً ما يحسّ الإنسان خلال الرحلة أنه أضاع الطريق، وأحياناً يحسّ كأنه أسيرٌ في متاهة لا سبيل له إلى الخروج منها، إنما يعزّيه أن الشيخ الأكبر يقول «كل الطرق دائرية» وهو قول من بعض معانيه أن الرحلة تعود بالإنسان في نهاية الأمر إلى ذات نفسه».

بين الأكبريين في أكسفورد! (٦)

الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله، قال في مَتْنه الجامع «إحياء علوم الدين» ما معناه أن الحلاّج لم يكفُر ولكنه أساء الأدب. والشيخ محيي الدين بن عربي أيضاً، لامَ الحلاّج لأنه (عرْبد) وأساء الأدب.

كانوا يقولون «لا تصفع الوجه» ـ وهو قول مأخوذ من نصيحة الرسول (ص) في معاملة المرأة. يقصدون بذلك وجه الشريعة، أي أن (العارف) مهما ظن أنه بلغ في مقامات القربى، فعليه ألا «يذيع الأسرار»، أو يقول أو يغفل شيئاً قد يظُنّ أنه يتعارض مع ظاهر الشريعة.

الشيخ محيي الدين بن عربي أذاع بعض «الأسرار». لكنها أسرار خرجت رغماً عنه. ولم يكن مثل الحلاّج، الذي كان يقف في الساحات العامة ويصيح «ما في الجُبّة إلّا الله»، وأبي يزيد البسطامي

الذي قال أفظع من ذلك.

إنها من قبيل «العربدة» و«إساءة الأدب». ورغم أن بعض المحققين فسّروها تفسيراً يبعدها عن الكفر، فلا ينكر أنها تصدم آذان أهل الشريعة الذين لم يجدوا بدّاً من رفضها، وبعضهم غالى في رفضه. وكان الحلاّج نفسه يفهم ذلك، فقد كان، كما رووا، يقف على أبواب المساجد وينادي «يا معشر المسلمين! أُقتلوني تُثابوا». وقد كان له ما أراد، كما نعلم.

ابن عربي حرص على لزوم ظاهر الشرع. وتجلياته التي لا يقل بعضها استفزازاً لأهل السنّة عن شطحات الحلاّج، لم يذعها على الملأ، إنما قيّدها في أسفاره في عقر داره، أو باح بها لتلاميذه ومريديه. كانت (مدرسته) مدرسة لقلة من (النخبة). وكوْن تلك الأفكار خرجت عن محابسها وذاعت بين الناس وانتشرت، وأحدثت البلبلة والسُّخط والرّضى، وأحياناً أضيف إليها وحُرِّفت، فلعلّ ذلك كان حتماً أن يحدث، ولم يكن لـ (الشيخ) فيه حيلة.

يقول برفّسر (هنري كوربان) في كتابه المرجع عن فكر ابن عربي:

«الحرص على ظاهر الشريعة في الإسلام لدى ابن عربي، لم يكن فقط لأنه كان يؤمن بأن الشريعة هي البناء المتين الأساس، الذي تنطلق منه الرموز وتتعلّق وتستمسك به التأويلات والاجتهادات، وإنما أيضاً لأن الشريعة هي الحصن الذي يحول دون طُغيان الجهلاء».

كان الشيخ محيي الدين بن عربي لا يفتأ ينوّه أن أقواله كلّها لم

تخرج عن نطاق القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة، ولكنه اختلف مع من أسماهم (علماء الرسوم)، في أسلوب التأويل، ودرجة الإدراك، الذي يقول إنه تأتى له بواسطة الفيوض الإلهية والذوق والكشف.

أقام مذهبه على (الحب والرحمة). وفي هذا الصدد، لعلّ أبياته الشهيرة التي أسخطت الفقهاء أشد السّخط، لم تخرج أيضاً من حيث هي شعر، عن مناخ التراث الشعري العربي. فقوله (لقد صار قلبي قابلاً كل صورة) إلى أن يقول:

أدين بدين الحب أنّى توجّهت
ركائبهُ فالحب ديني وإيماني

هذه الأبيات لا تبعد في ظني عن قول ابن المعتز وكأنها مأخوذة منه:

قلبي ميّال لذا وذا * ليس يرى شيئاً فيأباه
ويهيم بالحسن كما ينبغي * ويرحم القبح فيهواه

وعند ابن عربي (دين الحب)، هو الإسلام، وليس الحب بمعناه الجسدي المادي. وفي مذهبه أن الاسم القدسيّ الذي يغلب على أسماء الله سبحانه جميعها، هو (الرحمن). لذلك قال قولته الشهيرة «الكونُ مآلُه إلى الرحمة» وهو في هذا يستند إلى الآيات الكريمة العديدة عن (الرحمة) مثل قوله جلّ جلاله ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلامٌ عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾.

هذه السماحة، هي أيضاً من بعض أسباب جاذبية (الشيخ) لأمثال هؤلاء العلماء (الباحثين) المجتمعين في أكسفورد. لقد هوّن عليهم الأمر، ووسّع عليهم الدين، إذ يُضيّقُه بعض الفقهاء، ولم يترك باباً إلّا فتحه لهم للدخول في حمى الملة الحنيفة. الإسلام عنده يتسع للبَسطامي والجُنيد، كما اتسع للإمام مالك والإمام ابن حنبل.

هذا، وقد عدت أدراجي إلى لندن، وقد حرّك ذلك الاجتماع رغبتي في الرجوع مجدداً إلى تاريخ الأندلس، خاصة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، إذ إن فكر ابن عربي لا يمكن أن يُفهم إلّا في سياق تاريخ عصور الانحدار للدولة الإسلامية في الأندلس. ورغم أنني لم أقبل كثيراً من آراء أولئك (القوم) في ذلك الاجتماع - أو لعلّني لم أفهم تلك الآراء بسبب قصور فهمي وقلّة علمي - فإنني سوف أذكر مودّتهم ولطفهم وتواضعهم على غزارة علمهم.

سوف أذكر شاباً داوم معنا على حضور الاجتماعات كلها. أشعث، مشوّش الشعر. مرقّع الثياب وفي أُذنه حَلَق، لم يكد يبلغ العشرين. تحسبه صعلوكاً أو من هؤلاء الفتية الجانحين الذين تراهم في شوارع لندن. كان يسأل أسئلة ذكية ويُعرب عن آراء طريفة. ولما تحدثت معه، وجدتُ أنه يدرس الفلسفة والرياضيات في كلية من كليات جامعة أكسفورد. قال إنه اكتشف ابن عربي صدفة فاستهواه وسحره وسار وراءه.

وتلك العالمة السويدية من جامعة (أُبسالا)، قالت إنها جرّبت الأديان كلها، لم تترك ديانة إلّا دخلتها. ثم اكتشفت ابن عربي فجذبها إلى الإسلام. وكانت تلك خاتمة بحثها عن الحقيقة.

في صباح الأحد ـ اليوم الثاني للاجتماع ـ قرأ الدكتور (ستيفن هيرتنْستاين) من جامعة أكسفورد ترجمته الإنجليزية لدعاء ابن عربي ليوم الأحد ـ إذ إن لابن عربي دعاء لكل يوم من أيام الأسبوع.

استمعنا إليه بصمت عميق، تخلَّلتْه نهنهات بعضهم ـ خاصة من النساء ـ ببكاء مكتوم. ولما فرغ الدكتور (ستيفن) كان هو نفسه يوشك أن يجهش بالبكاء. وكانت تجلس بجواره على المنصة، الدكتورة (أليسون يانقاوْ) ـ أيضاً من جامعة أكسفورد ـ فكان التأثر واضحاً على وجهها.

ولما خرجنا من القاعة رأيت سيدة تبكي بحُرقة، ورأيت الدكتورة (أليسون) تسرع إليها وتحتضنها وتربت عليها وتسرّي عنها.

رحم الله الشيخ محيي الدين بن عربي، وقد كان عظيم الثقة في رحمة الله. مهما كان رأيك فيه، فإنك لا تستطيع أن تنكر، أن قليلين جداً من المفكرين في تاريخ الإنسانية، يمكن أن يحدثوا مثل هذا التأثير ـ خاصة في مناخات غريبة ولغات مختلفة ـ وخاصة بعد نحو ثمانية قرون من رحيله عن الدنيا.

خواطر من لويكَرْباد (١)

في هذه البلدة المُنقطعة، تعمّدت ألا أقرأ الصحف ولا أسمع الإذاعات ولا أشاهد التلفزيون. أحضرت بعض الكتب. في هذه الحياة، وفي هذه السن، بعد أن تكون فعلت وفعلت ـ غفر الله لك ـ لعله لا يوجد أجْلَب للسعادة من الخلوة مع كتاب جميل. وأيضاً أحضرت دفاتر بيضاء. قلت عسى ولعل.

إنما بعد أسبوعين، بلغ بي ما يشبه القرَم الذي يصيب آكل اللحم إذا طال حرمانه منه.

خرجت أبحث عن صحيفة إنجليزية، إذ إنه لا أمل هنا في الحصول على صحيفة عربية. حتى صحيفة «الشرق الأوسط» التي اندفعت شرقاً وغرباً مثل قوافي المتنبي (كيف قال؟)، لا تجدها هنا.

وجدت صحيفة الـ «أبزيرفر» اللندنية فكان سروري بذلك عظيماً. إنها صحيفة أقرؤها منذ ما يقرب من أربعين عاماً. يعجبني فيها رصانتها وميلها إلى الإنصاف واتجاهها اللبرالي. وأذكر لها مواقف جريئة في الدفاع عن طموحات العرب، ومقالات افتتاحية مدوية أيام حرب السويس وفي حرب عام ١٩٦٧. كان ذلك يثلج الصدر، خاصة في تلك الأيام الحالكة التي عزّ فيها النصير. هل كثر نصراء العرب اليوم؟

أيام عزّها ـ حتى السبعينيات ـ كانت مملوكة لعائلة (آستور) الأرستقراطية. وكان رئيس تحريرها (لورد ديفد آستور)، من أصدقاء صديقنا العزيز الدكتور منصور خالد. ومن بين مواهب الدكتور الكثيرة أنه يحسن اختيار الأصدقاء.

لم ألتقِ به، ولكنني تعرفت بزوجته مع منصور، إذ تغدّينا معها في مطعم هندي كان شهيراً تلك الأيام في الستينيات في شارعٍ (مورتمر). كانت صاعقة الحسن في زمانها، وأظنها كانت قبلاً عارضة أزياء. أحزنني أنني وجدت حسنها كما كنت أرى صورها في الصحف، قد ذبُل. لم تبق منه إلّا أصداء بعيدة، فحسن الوجوه كما قال الأستاذ «حال تحول».

ثيابها بعيدة عن التأنُّق، وشعرها يتناثر ذات الشمال وذات اليمين بلا ترتيب، ووجهها غُفلٌ من آثار التجميل. كان واضحاً أنها لم تعُد تهتم بمظرها. زهدت في ترف الحياة ـ كما قالت ـ ومالت نحو التصوف. وكانت مهتمة جداً بالكاتب الفرنسي الروحاني (تيار دي شاردان). رغم ذلك، بدت لي جميلة بوجه آخر، وكانت عذبة عذوبة واضحة.

الإنسان الجميل، إلّا إذا كان قبيحاً أصلاً في الداخل، يظل جميلاً مهما فعلت به الأيام، كأن الحسن ستارة تنزل فوقها ستارة. وما هو إلّا أن تزيل الستارة بعين خيالك كما وصف الأستاذ، فترى الحسن القديم هو هو على حاله. فلا تخافي ولا تحزني يا أم عمرو!

لو كنت في تلك الأيام أكثر اهتماماً بالشيخ محيي الدين بن عربي، إذاً لدللتُها عليه. لعله كان يأخذ بيدها في طريق الإسلام، فهذا الشيخ العتيد، لديه كما يبدو (من الناحية الروحية البحتة)، جاذبية طاغية للنساء خاصة، وهذا ما يؤكده (هنري كوربان) في كتابه الجميل الذي سماه «الخيال المُبدع».

أقول، لأجل ذلك كانت صحيفة الـ «أبزيرفر» تلك الأيام إنجليزية قُحَّة، مستقلة كل الاستقلال، فوق طائلة المؤثرات المالية والسياسية والعقائدية التي قلّ أن تنجوَ منها الصحف.

السبب واضح، وهو أن العوائل الأرستقراطية، يحسّون بسبب عراقة محتدهم واكتفائهم المادي وأنهم ـ كما يظنون ـ أصحاب حق في السلطة أصلاً، فإنهم لذلك (لا يعبأون بأحد). ومعروف أن شعار عائلة (سسل) وهم من صفوة الأرستقراطية الإنجليزية هو «آل سسل لا يَعْبأُون بأحد».

كان من بين هذه الطبقة دائماً، رجالٌ ونساء وجدوا الجرأة على تأييد العرب في أصعب الظروف. كانوا ككل الأخيار من طبقتهم، يمتازون بالاستقلال في الرأي وحب الإنصاف والقدرة على السباحة عكس التيار. وفي أحيان كثيرة كانوا يملكون العلم كذلك.

انظر إلى (ولْفرد بلَنْت) الذي ناصر الثورة العرابية، ولورد (كيرزُن) الذي عارض أشد المعارضة وعد بلفور، وكان وزيراً في حكومة لويد جورج التي أعطت ذلك الوعد. و(ليدي دَفْ قوردُن) التي عاشت في مصر وأحبتها، وتركت سجلاً رائعاً عن حياتها هنالك.

وفي السنوات الأخيرة (لورد نتنْج) الذي استقال من حكومة أنتوني إيدن وضحى بمستقبله السياسي الباهر احتجاجاً على غزو مصر عام ١٩٥٦. و(لورد كارادون) صاحب قرار مجلس الأمن الشهير وأخو الرجل العظيم (مايكل فوت). و(لورد قلمور) صاحب كتاب «الرقص مع الدُقْما» عن عهد مسز ثاتشر الكئيب. ولا بد أن أذكر صديقتنا (دورين انجرامز) التي أصدرت منذ عدة سنوات كتابها «أوراق فلسطينية»، وهو في ظني من أحسن ما كُتب عن جذور القضية الفلسطينية.

ذلك لا يعني بطبيعة الحال، أن كل أفراد هذه الطبقة من الأخيار، ففيهم أراذل كثيرون خاصة في ما يتعلق بالعرب. ويكفي أن نذكر (لورد بلفور) الذي جرّ وعده مصائب على العرب لم تنتهِ حتى اليوم ـ وربما يجر على اليهود أيضاً مصائب أعظم في نهاية الأمر. و(لورد كرومر) الذي طغى في مصر، وكان يحسب أنه يحسن صنعاً.

ورغم ذلك، فلا شك أن الصحف الإنجليزية العريقة ـ باستثناء الـ «ديلي تلغراف» اللئيمة ـ أكثر ميلاً لإنصاف العرب من غيرها. قلّ عددها الآن. صحيفة الـ «تايمز» آلت كما نعلم إلى المغامر الأسترالي (روبرت ميردك)، وكذلك الـ «سندين تايمز».

لم تبق غير الـ «إيكونومست» والـ «فنانشل تايمز»، وبقية رمق في الـ «أبزيرفر» والـ «جارديان» وربما الـ «أندبندنت». أضف إليها تلك الصحيفة الإسكتلندية العظيمة، الـ «سكُتْسمان»، التي ظلت طوال تاريخها محافظة على تلك الروح التي عُرف بها الإسكتلنديون ورثة (توماس كارلايل) ـ الصلابة في الحق، وكراهية الظلم، وحب الحرية والعدل.

خواطر من لويكَرْباد (٢)

هذه البلدة كأنها في قاع بئر واسعة، محاطةٌ بالجبال من نواحيها جميعاً، إلّا من منفذ في جنوبها الشرقي، هو عبارة عن واد ضيّق يجري فيه نهر (دالا) الذي يشق البلدة، متجهاً نحو نهر (الرون).

على مسيرة نحو ثلاث ساعات بالسيارة إلى الجنوب من مدينة (بيرن) حيث يقطن آل الرفاعي، تترك السهل الواسع وتضرب صعوداً في الجبال. جبال وراءها جبال، ووديان تؤدي إلى وديان. الأنهار تضيق وتتّسع، وتبطىء وتسرع، وتتفرّق وتتجمع. الماء يتحدَّر من القمقم، وينبثق من أحشاء الجبال، ويتفجّر من باطن الأرض.

ماء لا حصر له، كأنَّ الطبيعة أهرقت كل ما في أوعيتها على هذه الرقعة الصغيرة من أرض الله. وهم رغم وفرة الماء، لا يتركون نقطة منه تذهب هدراً ـ شأن الغنيّ الشحيح. كل جدول، وكل شلال،

وكل نبع، وكل نقطة من ماء المطر، يوجّهونها في قنوات مصنوعة إلى غايات محتومة، كي تغذي البحيرات الضخمة التي تتميّز بها سويسرا.

في نحو ثلثي الطريق، تدخل السيارات المتجهة جنوباً قطاراً يسير بها مدة ثلث الساعة في نفق قُدّ داخل الجبل، حفر الأنفاق في الجبال عند السويسريين مثل اللّعب. أسهل من حفر الآبار عندنا.

يخرج القطار من النفق عند بلدة تسمّى (قُبنْشتاين). تجد نفسك في طبيعة مختلفة ومناخ مختلف. هذا إقليم الـ (Valais) أي (الوديان). السهول أضيق من سهول الشمال خاصة حول مدينة (بيرن). الجبال أشد كثافة وأشد شراسة. الهواء أدفأ، هواء جاف ممطر، مشبَع بأريج العشب الجبلي والأزهار. وتنظر تحتك فإذا وادي نهر (الرون) وإذا مدينة (سيون) عاصمة إقليم الـ (Valais).

نهر (الرون) هذا، من الأنهار الأوروبية الكبرى، يخرج من جبال الألب في سويسرا حتى يدخل في بحيرة (ليمان) أو بحيرة (جنيف). ويخرج منها ويتجه جنوباً عبر فرنسا حتى يصب في البحر الأبيض المتوسط في خليج (ليون) غرب مدينة مرسيليا. ويبلغ طوله من منبعه إلى مصبه أكثر من ثمانمائة كيلومتر.

تنحدر السيارة في الوادي، ثم تأخذ في الصعود مرة أخرى في طريق متعرّجة لكنها معبّدة واسعة شُقت في الصخر على كتف الجبل. ثم تنحدر قليلاً، فإذا أنت في حوض أو (نُقْرة) على ارتفاع أربعة آلاف وستمائة قدم محاطة بالجبال من جهاتها الأربع.

الجبال عارية إلّا من الثلج على الذُّرى، وفي أسفل سفوحها غابات من الأشجار الصنوبرية الهرميّة التي تعوّدت على وطأة الثلوج في الشتاء. ثم مروج من العشب الجديدة شديدة الاخضرار تنحدر نحو النهر.

ولأن الهواء شديد النقاء، تستقبلك أول ما تصل، رائحة العشب وروث البقر ورائحة الماء الذي تنزُّ به الجبال، أمامك ووراءك وعن يمينك وعن شمالك.

في تلك المساحة الضيّقة بين الجبال، تقوم بلدة (لويكرباد) كأنها واحة منقطعة في صحراء، ولكن يا لها من صحراء. سكّانها لا يزيدون عن ألف وخمسمائة، وتتّسع كما تقول الإحصاءات لعشرة آلاف سائح. فيها نحو ثلاثين هوتيلاً، بالإضافة إلى ألف وستمائة شقة مفروشة للإيجار.

تعتمد (لويْكَرباد) في عيشها على ثلاثة مصادر:

الجبال، للذين يحبون المشي في دروبها الوعرة، والتزلج على الجليد في الشتاء، والمياه المعدنية الساخنة للعلاج صيفاً وشتاء.

تتدفق هذه المياه من منابع مجهولة في أحشاء الجبال. ويقدرون أن نحو ثلاثة ملايين لتر تتدفق كل يوم على أحواض المضخات المنتشرة في البلدة.

دلّنا على هذا المنتجع عبد الرحيم الرفاعي وزوجته (هايدي)، وكنا قبلاً نصطاف في (مورِن)، فوق (انترلاكن). وسويسرا كلّها، لولا

آل الرفاعي، كما قال عبد الرحمن الأبنودي:

ونــــحــــنَ تــــونــــس لــــولا يــــونــــس
لا عــــلــــى الــــبــــال ولا نــــذكــــروهــــا.

٢٥

خواطر من لويكَرْباد (٣)

من الذين عبروا بهذه البلدة المنقطعة الكاتب الألماني (يوهان وُلْفقانق ڤون قوته). لم يمكث فيها طويلاً، لأنه ـ بلا شك ـ كان يطلب الدفء والإلهام والسلوى، وراء (لويكرباد) إلى الجنوب ـ في إيطاليا.

تحوّل إعجابه بكفاح السويسريّين لانتزاع استقلالهم من أمبراطورية الـ (هابسبيرق) الألمانية، إلى ضيق واحتقار، فقال عنهم:

«بعد أن حرّروا أنفسهم من طاغية، أخرج دفء الشمس من رمَّته البالية جيوشاً من الحشرات الطُّفاة.. يقبعون وراء جدران بيوتهم وصخورهم سجناء ستة أشهر من السنة مثل الفئران في الثلج... قرى مُسودَّة وأكوام من الصخور والقذارة وروْث البهائم... قوم من البُله والحمقى فاغرو الأفواه، وفلاّحون منتفخو الأوداج والغُدد...».

واضح أن هذه الصورة الكاريكاتورية، لا تعبّر عن واقع الحال في سويسرا، بقدر ما تنمّ عن حالة الكاتب النفسية ومزاجه في تلك اللحظة.

أقرب إلى الإنصاف الصورة التي رسمها المؤرّخ الإنجليزي (اتش .آي .أل. فشَر). يقول: «في النصف الأول من القرن الخامس عشر أثار السويسريون في قلوب الطبقات المحافظة في إنجلترا وفرنسا، مشاعر من الذُّعر والكراهية والاحتقار، لا تقل عن المشاعر التي يسببها لهم الشيوعيون الرّوس في أيامنا هذه.

ذلك لأن ثورة السويسريّين، لم تكن موجهة فقط ضد أسرة (هابْسبيرق) وعملائها. ولكنها شملت أيضاً الطبقة الأرستقراطية المحليّة المسيطرة، كانت حركةً من نوع جديد، تُمثِّل الطموحات السياسية والاجتماعية لسكان المدن والأرياف، ضد الامتيازات الإقطاعية المتوارثة من عصور غابرة.

كانت أنباء (تصفية) الدّهماء من السويسريين لتسلّط الإقطاع، في إقليم بعد آخر، تُدخل الرّعب في قلوب (النبلاء) الألمان. خافوا أن يحذو الدهماء الألمان حذوهم، فينقضّون على سلطات الإقطاع في ألمانيا. وقد عبّر الأمبراطور (ماكسمليان) عن هذا الإحساس حين قال في بيان وجّهه للشعب الألماني:

«هؤلاء الغوغاء السويسريون، ما هم إلّا أخلاط من الفلاحين الأفظاظ الجهناء، الذين لا أصول ولا أخلاق لهم، ولا يحرّكهم إلّا نكران الجميل وكراهية الأمة الألمانية».

كان فوز السويسريّين بحريتهم، أول انتصار للمبادئ الديموقراطية في أوروبا. وكان ذلك أدعى للدهشة لأنه جاء معاكساً للتيار السائد في أوروبا في ذلك الزمن، وهو الاتجاه نحو تدعيم أمراء الإقطاع.

كان السويسريّون فقراء من أية أفكار اجتماعية أو سياسية متقدّمة يمكن أن يقدّموها للعالم.

لا حضارة لهم تقارب حضارة إيطاليا أو ألمانيا أو فرنسا. لم يساهموا حينئذٍ، ولم يساهموا حتى اليوم، في مجال العلم والفكر والثقافة في أوروبا. ورغم ذلك فإن الشعب السويسري الضعيف المفكَّك، أحدث بحصوله على حريته، شيئاً قلّ نظيره في سياق التاريخ الأوروبي كلّه.

لم يكن فقط أن السويسريين أعطوا جيوش أوروبا كلّها دروساً باهرة في الفن العسكري، ولكنهم بشجاعتهم وقوة عزيمتهم أشعلوا من جديد نيران الحرية في أوروبا.

قبل أن يكتشف بقية الأوروبيين جمال جبال سويسرا وثلوجها بزمن طويل، ويتخلوا عن نفورهم من السويسريين واحتقارهم لهم، كانت تلك الرقعة الصغيرة من الأرض، قد أصبحت موطناً للطموحات العسيرة، يتنفّس فيها الناس بحرية، ويُقْدمون على مواجهة القضايا المُستعصية دون وجَل».

خواطر من لويكَرْباد (٤)

يقول السويسريُّون إن تاريخ بلادهم عبارة عن سجل لاتجاهات متضاربة ونزعات متعارضة. ولعل أوضح ظواهر هذا التضارب، هو النزوع من ناحية إلى العيش في تجمعات بشرية وإدارية صغيرة، ومن ناحية أخرى الرغبة في تجميع هذه الوحدات الصغيرة في كيان كبير موحد.

وكون السويسريين نجحوا في إنشاء دولة حديثة ينوّه بذكرها، حافظوا فيها على هاتين النزعتين المتضاربتين، لهو بحق من أكبر الإنجازات في التاريخ.

الاسم الرسمي للدولة باللغة اللاتينية هو (Confoedera tio Helvetica) أي (كنفدرالية هلفيشيا)، وهو الاسم المطبوع على أوراق العملة، ومنه الحرفان (C.H) اللذان تجدهما على لوحات

السيارات السويسرية. والاسم مأخوذ من اسم قبيلة من (الكلْتْ الغاليّين) عُرفوا بـ (الهلفيسيّين) نزَحوا قبل بداية التاريخ المسيحي من ضفاف نهر الـ (راين) واصطدموا بالرومان الذين كانوا يسيطرون على الإقليم الذي يُعرف اليوم بسويسرا وهزموا جيشهم عام ١٠٧ق.م.

إلّا أن الرومان بقيادة (يوليوس قيصر)، لم يلبثوا أن هزموهم وأخضعوهم لسلطانهم، فاستقروا في مستوطنات صغيرة على ضفاف بحيرة (جنيف) ونهر الـ (راين) وفي الإقليم الذي يعرف اليوم بإقليم الـ (تشينو) في الجنوب السويسري.

أعطاهم الرومان سُلُطات محدودة لتصريف شؤونهم. وتقول المصادر، أن تلك كانت البداية في وجود ظاهرة الوحدات الإدارية الصغيرة التي سوف تظل مظهراً مميزاً للنظام السويسري.

خلال العهد الروماني، كان نهر الـ (راين) من مدينة (بازل) في الغرب، إلى مدينة (كُنْستانْس) في الشرق، بمثابة الحدود الفاصلة بين الشعوب اللاتينية، والشعوب الجرمانية. هذان العنصران سوف يتغلغلان في الأراضي السويسرية فيما بعد، ويكوّنان عصب الأمة كما هي معروفة اليوم.

في عام ٤٧ للميلاد، حدث أمرٌ سوف يكون له أثرٌ بعيد في تاريخ سويسرا، وذلك أن الرومان بعد أن سيطروا على جبال الألب كلّها، أرادوا كما كانت عادتهم في ربط أطراف أمبراطوريتهم، أن يربطوا بين شمال أوروبا وجنوبها، ففتحوا في الجبال الممر المعروف بـ (ممر سانت بيرنارد).

ويصفون أن هذا الحدث كان له من الأثر أكثر مما لأية معركة عسكرية. ذلك أنه أكّد صفة أخرى تميّزت بها سويسرا طوال تاريخها المليء بالتناقض والتضارب. فهي من ناحية تميل إلى أن تكون «قلعة حصينة مُغْلَقة»، ومن ناحية أخرى أصبحت «معْبَراً مفتوحاً».

هذا، وفي أواخر العهد الروماني، مع سهولة التواصل عبر تلك المضائق الجبلية، بدأ الدين الجديد ـ المسيحية ـ يتسرّب بالتدريج إلى داخل الأراضي السويسرية. وما إن حلَّ القرن الرابع الميلادي، حتى كان قد عمَّ وانتشر وصار الدين الغالب في القطر.

ذلك أيضاً سوف يكون له أثر بعيد في مجرى التاريخ السويسري. ويكفي أن أشير الآن، إلى أن سويسرا ومدينة (جنيف) خاصة، أصبحت منذ القرن السادس عشر، معقلاً من معاقل البروتستانتية الكالفينية. وهو المذهب المستمد من أفكار المفكّر اللاهوتي، الفرنسي المولد (جان كالْفنْ).

إنه مذهب جمع، على الطريقة السويسرية ـ كما يقول الفيلسوف (ماكس وبَر)، ربما بشيء من السخرية، «بين حب الدنيا وحب الآخرة، بين نقاء العقيدة وتشجيع التجارة والربح!».

إنه بحق مزيج من عجيب من التناقض. وكون السويسريين استطاعوا أن يصوغوا من كل ذلك التناقض دولة موحدة يُضرب بها المثل في الاستقرار السياسي والرّفاه المادي، فتلك معجزة من معجزات التعايش السلمي التي أنجزها الإنسان.

خواطر من لويكَرْباد (٥)

لاحظ المؤرخون أن السويسريين أحدثوا ثورة دون أن يقصدوا ذلك، وأقاموا دولة مستقلة دون أن يكون ذلك هو هدفهم منذ البداية. وكان مما يدعو أيضاً إلى الدهشة والإعجاب، أن مسيرة تاريخهم في نيل الاستقلال، كانت مخالفة لبقية الدول الأوروبية، التي كانت تقوم بواسطة تعزيز سلطان الإقطاع. أما السويسريون فقد أنشأوا دولتهم بواسطة انتفاضات شعبية ضد سيطرة الإقطاع.

لم يكن نضالهم أول أمره في النصف الأول من القرن الثالث عشر، يهدف إلى الانفكاك من التبعية لأمبراطورية الـ (هابْسبيرق)، وريثة ما كان يُسمى بـ (الأمبراطورية الرومانية المقدسة)، وإن كانت ليست أكثر من ظلّ باهت لها. كان السويسريون يهدفون فقط إلى التخلّص من رجال الإقطاع الذين كانوا يحكمونهم حكماً متعسفاً باسم الأمبراطور، وأن يصيروا تابعين تبعية مباشرة للأمبراطور نفسه.

ويذكر المؤرّخون، أن من مظاهر فساد الأحوال في أمبراطورية الـ (هابسبيرق) أنها لم تعبأ بذلك المطلب المشروع، الأمر الذي اضطر السويسريين إلى حمل السلاح، وتحقيق مطلبهم بالقوة.

في السفوح الشمالية لسلسلة جبال الـ (قوتارد)، وعلى طرفيْ البحيرة التي عُرفت فيما بعد ببحيرة (لوتْزْيرْن)، نمت مجموعتان من السكان في تنظيمات لها طابع الدويلات الصغيرة، هما كانتون (أوري ـ Uri) وكانتون شفتز Schwz. في هاتين الدولتين، كان السكّان على اختلاف طبقاتهم، من فلاّحين وأصحاب حرف وبعض صغار النبلاء، ينظمون أمور حياتهم بوسيلة ديموقراطية، بواسطة مجالس شورى لها طابع البرلمانات.

في عام ١٢٣١، نجح كانتون (أوري) في انتزاع موافقة الأمبراطور على منحه ما كان يُعرف بـ (براءة الأمبراطورية)، أصبح الكانتون بمقتضاه تابعاً للأمبراطورية مباشرة. هذا التطوّر جعل كانتون (شفتز) يطالب بالحق نفسه. ولما لم يستجب الأمبراطور، قام الكانتون بثورة مسلّحة، اضطرت الأمبراطور إلى إعطائهم (براءة الأمبراطورية) عام ١٢٤٠.

ولكن لوردات الإقطاع لم يقبلوا هذا الوضع، فحمل المواطنون السلاح مرة أخرى، وأجبروا الأمبراطور على تأكيد وضعهم الدستوري الجديد بأن أباح لهم رفع علمهم الخاص بهم، وهو عبارة عن صليب أبيض على قاعدة حمراء.

ذلك العلم أصبح فيما بعد هو علم الدولة الموحدة، كما أصبح اسم الكانتون، هو اسم الدولة (شوايتز ـ سويسرا).

بعد ذلك، استغل السويسريّون ضعف الأمبراطورية، فقاموا بانتفاضات مسلّحة في عدة مناطق حصلوا من جرّائها على مزيد من الاستقلال الإداري.

ثم أخذت تلك الكانتونات في عقد اتفاقيات إحداها مع الأخرى، لتنظيم المعاملات فيما بينها، والتعاون على صيانة حقوقها المكتسَبة.

وفي اليوم الأول من شهر آب/ أغسطس عام ١٢٩١، حدث أمر سوف يكون له أثر بعيد في تاريخ سويسرا. خلال البلبلة التي أعقبت وفاة الأمبراطور (روبرت) وتراخي قبضة الدولة، أقدمت ثلاث كانتونات على اتخاذ خطوة حاسمة، فعقدت معاهدة فيما بينها كانت الأساس لقيام الكنفيدرالية السويسرية، والكانتونات هي (أوري) و(شفتز) و(نيدْ والدِنْ) التي عُرفت بـ (كانتونات الغابة).

كانت معاهدة ثورية في تلك الظروف، وإن لم يعطها السويسريون تلك الصفة، فقد نصت على إضفاء صبغة الولاء المشترك لمواطني الكانتونات الثلاث، وأنه إذا حدث أي اعتداء على واحدة منها، تلتزم البقية بالدفاع عنها، وأن الكانتونات المتعاهدة لا تعترف بأية امتيازات قد يكون بعض الأفراد قد حصلوا عليها تحت نظام الإقطاع، كما تحظر أن يعمل مواطنوها جنوداً مرتزقة في خدمة قوى أجنبية أو بأية صفة أخرى (كان ذلك أمراً شائعاً في سويسرا).

كذلك نصّت المعاهدة على رفض أي تدخل أجنبي في شؤونها الداخلية حتى لو كان ذلك من الأمبراطور نفسه، وحدّدت أنواع العقوبات التي تُفرض على أولئك الذين يقومون بأعمال تخلّ بالأمن أو تضرّ بالمصلحة العامة.

في حالة حدوث خلاف بين الأطراف المتعاقدة، نصّت المعاهدة على تعيين لجنة من الوسطاء، للإصلاح فيما بينها، وتكون قراراتهم مُلزمة لجميع الأطراف، وتُفرض بالقوة إذا لزم الأمر.

وانتهت المعاهدة بالقول:
«سوف تكون هذه المعاهدة سارية المفعول إلى الأبد إن شاء الله».

كان أحد (الآباء المؤسّسين) الذين وقّعوا على تلك المعاهدة، وأقسموا على الوفاء بها، وهو القسم الذي يُعرف بـ (قسَم روتلي)، رجلاً اسمه (وليم تلْ)، تحوّل فيما بعد إلى أسطورة بطولية في التاريخ السويسري، وخلّده الشاعر الألماني (شِلَر) في إحدى مسرحياته.

كذلك صار يوم توقيع المعاهدة، الأول من شهر آب/ أغسطس، عيداً سنوياً من الأعياد الوطنية في سويسرا.

خواطر من لويكَرْباد (٦)

لم تلبث الأحداث أن وضعت على محكِّ الاختبار، الحلفَ الذي عقدته الكانتونات السويسرية الثلاث، في الأول من آب/ أغسطس عام ١٢٩١.

في عام ١٣١٥ نشب نزاع بين أمبراطورية الـ (هابْسبيرق) وبين كانتون (شفتْزْ) بسبب تصرُّفات اعتبرتها الأمبراطورية بمثابة تمرّد على سلطتها. أَرسلت حملة عسكرية قوامها نحو ثلاثة آلاف جندي لتأديب الكانتون، وكان يقودها أحد المتطلّعين لعرش الأمبراطورية وهو الدوق (ليوبولد).

حسب نص مادة الدفاع المشترك في معاهدة عام ١٢٩١، كان لزاماً على الكانتونين الآخريْن أن يسارعا إلى مساعدة كانتون (شفتْزْ)، فجمع ثلاثتهم جيشاً من ألف مقاتل، والتقوا بالجيش

الأمبراطوري في موضع جبليّ يسمى (مورْقارْتن ـ Morgarten)، وهزموه هزيمة نكراء دوّت أصداؤها في أنحاء أوروبا.

بعد هذا الانتصار مباشرة، جدّدت الكانتونات الثلاث المعاهدة، وأضافت إليها بنداً جديداً ينصّ على منع أي منها عقد أي اتفاقيات فردية مع أية أطراف أجنبية.

لم تجد الأمبراطورية إزاء هذه القوة الجديدة المتنامية، بدّاً من أن تُوقّع معهم صُلحاً في عام ١٣١٨، اعترفت لهم فيها بالمكاسب والامتيازات التي انتزعوها بالقوة، كما منحت (براءة الأمبراطورية) لسكان الكانتونات الثلاث جميعاً، وبذلك محت آخر مظاهر الإقطاع لديهم، فأصبحوا مواطنين.

صار للاتحاد كل مقوّمات الدولة المستقلة. ولكن السويسريين ـ وقد أخذوا أكثر فأكثر يسمّون أنفسهم بالسويسريين ـ لم يطالبوا بالانفصال عن الأمبراطورية. اكتفوا ـ إلى حين ـ باستقلالهم الذاتي، وصلتهم المباشرة بالأمبراطور، وأنهم بالاسم فقط وليس بالفعل، جزءٌ من أمبراطورية (الهابسبيرق).

هذا التأنّي، والصبر في الوصول إلى الهدف، ما يزال إلى اليوم، يحفز إعجاب المؤرخين.

ذلك المناخ من الحريّات المكتسبة، والوحدة المتزايدة، والثقة بأنفسهم نتيجة نصرهم العسكري على أكبر دولة في أوروبا في ذلك الوقت، أعطى السويسريين حيوية إضافية، لدعم قوتهم العسكرية، وتحسين أحوالهم الاقتصادية، وتنظيماتهم الإدارية.

في عام ١٣٣٢، حصل الاتحاد الوليد على دفعة قوية، فقد قررت مدينة (لوتْزيرن ـ Luzern) أن تنضم إليه. كانت مدينة لوتزيرن على بحيرتها الواسعة ممراً مائياً تجارياً مهماً، وبانضمامها، حصل الاتحاد على مزايا تجارية واستراتيجية هائلة، وأصبحت البحيرة تُعرف باسم (بحيرة دول الغابة الأربع).

ثم في عام ١٣٥١، نال الاتحاد هدية أكبر، إذ انضمت إليه مدينة (زيورخ) الكبرى في الشمال الشرقي.

كانت (زيورخ) مركزاً تجارياً وصناعياً، من المراكز الأوروبية المعروفة، تقع على ملتقى طرق تصلها بألمانيا وإيطاليا وموانىء البحر الأبيض المتوسط. وسوف تكون منذ أوائل القرن الخامس عشر منطلقاً لحركة إصلاحية دينية موجّهة ضد كنيسة روما ـ كما كان شأن الحركة اللوثرية ـ وكان يتزعم الحركة السويسرية قسيس يُسمّى (زفنقلي ـ Zwingli).

كانت مدينة (زيورخ) ـ أو بالأحرى دولة زيورخ، فقد كانت بعض المدن الأوروبية في ذلك الزمان لها طابع الدول ـ كانت داخلة في صراع ضد الأمبراطورية، فكان من نتائج ذلك الحلف، أن الكانتونات المتحالفة جميعاً دخلت الحرب في صفها.

ومرّة أخرى ألحقت الجيوش السويسرية هزائم كبيرة بجيوش أمبراطورية الـ (هابسبيرق). وكان من نتائج تلك الانتصارات، أن التحالف السويسري، حصل على أولى مكاسبه الإقليمية، فقد انتزع من الأمبراطورية، إقليم (قلارَس ـ Glarus) الزراعي، ومدينة (زوق ـ Zug)، على الطريق بين زيورخ والممرات الجبلية.

لم يفرض التحالف سيطرته على تلك المناطق المكتسبة بوصفها غنائم حرب، ولكنه عقد معها معاهدات جعلتها أطرافاً متساوية في التحالف السويسري.

صار الاتحاد برقعته المتزايدة وانتصاراته العسكرية الباهرة، قوة جديدة في قلب أوروبا. قوة تسبّب القلق، بل الخوف، لدى البعض،، وفي الوقت نفسه تُغري المدن والكانتونات السويسرية الأخرى بالانضمام إليه طلباً للحماية، وأيضاً تجاوباً مع الروح القومية الجديدة التي أخذت تنتشر عنه.

وهكذا في عام ١٣٥١، وهو العام نفسه الذي انضمت فيه (زيورخ)، قررت مدينة (بيرن ـ Bern) الانضمام.

كانت مدينة (بيرن)، التي سوف تكون فيما بعد عاصمة للدولة الموحدة، قلعة حصينة بموقعها المميّز على نهر (آري). كانت تتبّع سياسة عسكرية نشطة، وتتوسع في اتجاه جبال الألب. وكانت مرتبطة بحلف مع الـ (بيرقنديّين) الفرنسيين.

كان صراع الاتحاد مِن قبل موجّهاً ضد الألمان. بعد انضمام (بيرن)، سوف يتجه وجهة أُخرى.

خواطر من لويكَرْباد (٧)

كان نضال السويسريين ضد أمبراطورية الـ (هابسبيرق) حتى أواخر القرن الرابع عشر، صراعاً داخلياً بين شعوب ناطقة باللغة الألمانية. الكانتونات الثلاث التي قادت الحرب، والكانتونات التي دخلت التحالف في ما بعد، كانت جميعها ناطقة باللغة الألمانية.

الحروب هي التي وضّحت أكثر فأكثر، الذاتية المستقلة للسويسريين. ومرة أخرى، يسير السويسريون ضد التيار العام للتاريخ الأوروبي، فقد كان الاتجاه هو أن تتوحد الشعوب التي تربط بينها لغات مشتركة.

أصبحت الصلات بين الشعوب الناطقة باللغة الألمانية على ضفتي نهر الـ (راين) تزداد ضعفاً إلى أن صار النهر حدّاً فاصلاً بأن الكيان القومي الذي أخذ يُعرف بـ (سويسرا)، والكيان القومي الذي سوف يُعرف بألمانيا.

في شهر تموز/ يوليو من عام ١٣٨٦، حقّق التحالف السويسري نصراً عسكرياً مدوياً ضد الأمبراطورية، من تلك الانتصارات التي لم تكن بقية الأوروبيين تتوقعها من السويسريين ـ ذلك الشعب الذي وصفه (قوته)، كما نذكر، بأنه شعب «من البُله والحمقى فاغري الأفواه، وفلاّحين مُنتفخي الأوداج والغدد».

قامت الحرب في البداية، بين الأمبراطورية وكانتون (لوتْزيرن). وكان لزاماً على بقية الكانتونات المتحالفة أن تدخل الحرب في صفّها حسب نص معاهدة عام ١٣٣٢.

التقى الجيش السويسري بجيش الأمبراطورية عند بلدة تُسمى (سمباخ ـ Sempach). سوف تكون لها شهرة واسعة في ما بعد. كان الجيش الأمبراطوري أكثر عدداً وأقوى عُدّة، ولكن السويسريين واجهوه بأساليب مبتكرة في القتال. استطاعوا أن يشقّوه إلى نصفين ويبدّدوا شمله ويضطرّوا قادته إلى الفرار.

طارت أنباء ذلك الانتصار شرقاً وغرباً في أوروبا، الأمر الذي أوقع أكبر الضرر بهيبة الأمبراطورية. وبعد عامين فقط، في عام ١٣٨٨، عزّز السويسريون ذلك النصر بنصر حاسم آخر، في معركة (نافلس Nafels).

ذلك كله قوّى من التقارب بين الكانتونات المتحالفة، وأعطاها صفة الدولة الموحدة، بقدر أكبر. سوف يمضي وقت قبل أن تصبح دولة بالفعل. وكان من آثار تلك الانتصارات، أن السويسريين دعموا أحلافهم السابقة بحلف واسع شامل عام ١٣٩٣ يُسمّى (ميثاق سمباخ).

كان من أهم ما اتفقوا عليه في ذلك الميثاق، أنهم أنشأوا نواة لقوة عسكرية موحدة. لم يكن لهم جيش قومي، ولكن نظام الخدمة العسكرية الإجبارية الذي اتفقوا عليه، كان يضمن لهم عند الضرورة، حشد جيش من ثمانين ألف مقاتل، في وقت قصير.

كان جيشاً من نوع جديد.. جيشاً شعبياً خالصاً، خالياً من المحاربين المرتزقة، كما كانت عادة الجيوش الأوروبية في ذلك العصر. ولا يزال الجيش السويسري إلى اليوم يحتفظ بتلك الصبغة ـ صبغة الجيش الشعبي.

أكد الميثاق أيضاً على حقوق المواطنين التي انتزعوها انتزاعاً من الأمبراطورية، وعلى حرياتهم، وعلى المبادىء كلها التي كانت منذ البداية، مُنطلقاً لثورة السويسريين ضد أمبراطورية الـ (هابسبيرق)، وضد استبداد الإقطاع، الذي كان من ركائز الحكم الأمبراطوري.

وهكذا نجد أن سويسرا مع بداية القرن الخامس عشر، كانت قد صارت (كنفدرالية) أشبه ما تكون بالدولة المستقلة. لكنها ما تزال دولة لم ترتبط بعد برباط متين. كانت الأحلاف بين الكانتونات، تتفاوت من حيث القوة والضعف. كانت دولة بلا رأس، ولا نظام موحد للحكم. القرارات تتخذ في مجالس استشارية (Diets) بواسطة ممثلي الكانتونات.

بالإضافة إلى ذلك، كانت الشعوب المنضوية في التحالف، تموج بطموحات متزايدة، نتيجة لانتصاراتها المتتالية، وبتأثير من الأفكار الاجتماعية والسياسية الجديدة.

إنما، على وجه العموم، استطاع التحالف أن يصمد في وجه عدد من الاختبارات، وكان بعضه اختبارات عسيرة، مثل النزاع الذي نشب عام ١٤٠٤، بين كانتون (شفتز) وكانتون (لوتْزيرن). وجدير بالذكر أن سبب النزاع، كان انتفاضة قام بها الفلاحون ضد سكان المدن.

انحاز كانتون (شفتز) إلى صف الفلاّحين، وانحاز كانتون (لوتزيرن) إلى صف سكان المدن.

وكاد النزاع يؤدي إلى القتال، لولا أن نظام التحكيم الذي نصّت عليه معاهدة ١٢٩١ نجح في التوصل إلى حل.

٣٠

الرحيل بلا ضوضاء

في أواسط الثمانينيات عقدت منظمة «اليونسكو» مؤتمراً كبيراً في الخرطوم، حضره أحمد مختار أمبو، مدير عام المنظمة.

في نهاية المؤتمر ذهبنا لوداعه . كان في قاعة كبار الزوّار، الجمع الذي يكون عادة في استقبال الكبراء ووداعهم، من وزراء وسفراء ووكلاء وزارات وكبار موظفي الدولة، ومصوري تلفزيون ومراسلي إذاعة وصحف.

ومن عجائب الصدف، أن «أمبو» حين وصل من باريس، جاءت بعده بقليل طائرة تحمل الوفد الموريتاني، فلم يلتفت أحد إليهم، وانصرفوا كلّهم إلى مدير عام منظمة «اليونسكو».

كان على رأس الوفد الموريتاني الأستاذ محمد سالم ولدْ عدُّود،

وهو من علماء اللغة العربية الذين يُشار إليهم بالبنان، وبيني وبين الموريتانيين ودّ قديم، فانشغلت بهم حتى أدخلتهم غرفهم في الهوتيل، وقلت «أمبو» يكفيه كل أولئك الوزراء والوجهاء. كان على حبّه للرئاسة، رجلاً فاضلاً ورعاً، وكان حريصاً تلك الأيام أن يمدّوا له في رئاسة «اليونسكو». ولعل أقدار الحياة أرادت أن تلفت نظره، عند قدومه وعند سفره، أن تلك الرئاسات مهما طالت فهي إلى زوال.

الآن ونحن ننتظر إقلاع الطائرة التي سوف تعود به إلى باريس، وكان الوقت أواخر الليل، إذا ضوء يسطع إلى عيننا. التفتّ إلى مصدره، فإذا تلك السيدة العجيبة، تدخل بهدوء كما يسيل الماء في الجدول، عليها الثوب الأبيض الذي اشتهرت به، وحولها فتيات في مثل زيّها، سمراوات، هنديات أو إثيوبيات أو خليط من أجناس.

جلستْ على كنبة وطيئة، وجلسن حولها وعند قدميها كأنهن فراخُ حمام في عُش. لم يكن معها غير مودّع وحيد، ربما من إحدى منظمات الإغاثة.

ذهبتُ وسلمت عليها، وعلمت منها أنها كانت في «سنّار» في الجزيرة جنوب الخرطوم، وأنها قضت شهراً تحاول أن تساعد ضحايا المجاعة.

تهشُّ لك كأنها تعرفك من زمن، وتحدّثك بصوت خافت فيه لكنة هندية منغم بالمرح. وجهها مغضَّنٌ مليء بالتجاعيد. وجه جميل، من أجمل ما وقعت عليه عيناك. يذكرك بوجوه كثيرة أحببتها وضاعت منك في زحام الحياة.

تملؤك بالحبور والحزن، وتراها خفيفة جداً ـ وهي صغيرة الحجم أصلاً ـ كأنك تستطيع أن تحملها في راحة يدك تريد أن تحتضنها وتقبّلها، كما تحتضن جدتك أو أمك أو ابنتك.

عدتُ إليهم، وقلت لهم «هذه الأم تريزا». هبَّ أمبو واقفاً من فوره، وقاموا كلهم وساروا لتحيتها. ولمّا عادوا، خيّل إليَّ أنه لم يبق منهم شيء. أي جاذبية وأيُّ ألَق، قد تكون الحياة قد أسبغتْه عليهم، انطفأ في وهج الضوء المنبعث من تلك الإنسانة الضئيلة الحجم، المغضّنة الوجه، الجالسة في راحة من الطمأنينة والمحبة بين بناتها، كأنها حمامة بين فراخها في العش.

قال وزير الإعلام إنه لم يكن يعلم بوجودها في السودان، وإلّا لكانوا احتفوا بها كما يليق بمثلها. دخلت بدون ضوضاء، وها هي ذي تخرج بلا ضوضاء. ولما وصلت طائرة «أمبو» مشى إليها متثاقلاً على غير عادته. كان رجلاً ورعاً. لم يلبث في منصبه الخطير بعد ذلك إلّا قليلاً، ولا أدري إن كان لقاؤه العابر بتلك الطاقة الروحية الهائلة، قد هوّن عليه مرارة الهزيمة.

عاشت حتى ماتت في سن السابعة والثمانين، في أفقر أحياء «كلكتّا»، تخدم المجذومين وذوي العاهات واللقطاء وجموع المساكين الذين تقذفهم الحياة على ساحل بحرها الموحش. يسألونها، لماذا لا تقوم بأي نشاط تبشيري، فتجيبهم «نعم، أقوم بنشاط تبشيري. إنني أساعد المسلم على أن يكون مسلماً أفضل، والهندوسي أن يكون هندوسياً أفضل، والمسيحي أن يكون مسيحياً أفضل».

حين توفيت في أعقاب مصرع الأميرة «ديانا»، وما صحب ذلك من ضوضاء إعلامية، خطر لي أن الأقدار شاءت لها أن ترحل عن الحياة بلا ضوضاء، كما أرادت، فجاء موتها بتلك الطريقة. كأنها موجة صغيرة في ذيل موجة عاتية. أو كأنها صدى ضعيف لصوت طنّان. وأي موجة؟! وأي صوت؟!

في ظني أن خير ما حدث للأميرة «ديانا» في حياتها القصيرة المحزنة، أنها وجدت «الأم تريزا» في طريقها، ووقعت تحت تأثير جاذبيتها. ولعلّها بسبب ذلك، اندفعت فيما بعد بعزيمة أشد في أعمال الإحسان والبرّ.

وكانت تقول:
«أحب أن أصنع شيئاً جميلاً للّه».

٣١

مملكة آل فريزر

متجر (هارودز) في حي (نايتسبردج) في لندن، كان في الزمان الغابر قلعة من قلاع الأمبرطورية البريطانية. لم أشتر منه شيئاً أبداً، فذلك فوق طاقتي، ولكنني أزوره أحياناً للفرجة، كما أزور المتحف البريطاني، ومتحف الـ (تيت قَلري). والحيّ كله، الممتد حتى (سلون سكوير) و(ساوث كنسجتُن)، إلى غابة (تشلسي) على النهر، كان مسرحاً للصبابات، أيام (كان الشباب مطيّة الجهل)، بصحبة صلاح أحمد محمد صالح وعبد الرحيم الرفاعي.

كان يملكه ـ عنيت المحل التجاري ـ آل «فريزر» الأرستقراط. وآخر من آل إليه منهم، رجل تعيس الحظ، بحسبان تلك الطبقة. كان متزوجاً من الكاتبة المعروفة التي ما تزال تحمل اسمه، (ليدي أنتونيا فريزر). وهي سليلة أسرة كاثوليكية من النبلاء، فأبوها (لورد لُنقفورد)، من لوردات حزب العمال ومن العاملين في ميدان البر

ومساعدة الضعفاء. وأمها كاتبة معروفة أيضاً، ومن مؤلفاتها كتاب بديع عن حياة ذلك اللورد النبيل الذي أحب مصر وناصر الثورة العرابيّة (ولُفرد بلَنت).

طلّقته بعد أن أنجبت منه خمسة أو ستة أطفال، وتزوجت الكاتب اليهودي المسرحي الشهير (هارولد بنْتَر). وهو والحق يقال، كاتب كبير، يُقارَن في أهميته في المسرح بـ (ساموِيل بكتْ) إلى جانب أنه إنسان مهذّب، بعيد عن التعصُّب.

كانت تُعدُّ من فاتنات عصرها، وكانت - والشي يذكِّر بالشيء - زميلة صديقنا الرسّام السوداني الموهوب حسين مأمون حسين شريف في جامعة (كيمبردج).

وحسين هذا، كان من نجوم المجتمع الإنجليزي في تلك الأيام. كان وسيماً، طلق اللسان جداً باللغة الإنجليزية، ذكياً حلو الحديث والدُّعابة، إضافة إلى أنه من «آل المهدي». وكانوا يعاملونه على أنه (أمير)، علماً أننا في السودان، ليس عندنا طبقات ولا أمراء، كلّنا نلبس العمائم والجلاليب، ونأكل الكسرة بـ «مُلاح الويكة».

كانوا يجدون فيه ذلك الجانب الـ Exotic والكلمة تعني أصلاً «الشيء أو الشخص القادم من بلاد برّة». فتأمّل! وكان يلبس أزياء طريفة تؤكد ذلك الانطباع، وهي أزياء صارت (موضات) فيما بعد، ربما بتأثير منه، فقد كان وثيق الصلة بتلك النُّخبة من الرجال والنساء المؤثرة في الذوق العام.

وهو رسام موهوب جداً، عرض أعماله في لندن وغيرها، واكتسب

شهرة فنية كبيرة. لكنه موزّع الاهتمام، فقد جذبته السينما بعد ذلك، وأنتج أفلاماً قد تروق النُّخبة من عُشاق الفن السينمائي، إلّا أنها لم تجد ذيوعاً.

أراد أن يعرّفني بتلك السيدة، فلم أكترث لذلك، فقد كنت في أيام (جاهليّتي) ـ كما يقول الشيخ ابن عربي رحمه الله ـ لا أدخل بحراً ولا أقوى على السباحة فيه. وتلك الطبقة ناعمة الملمس، خشنة المخبر، رغم أن منها أناساً فضلاء. ونساؤها خاصة عظيمات الجاذبية، ولكن البعد عنهم غنيمة في كل الأحوال. وأنا أصلاً هواي مع غيْلان، ذي الرُّمة، في:

«عطابيل سُمْر من ربيعة عامر
عذاب الثنايا مُشْرفات الحقائب»

عدا أن غيْلان العَبقري لم يقُل (عطابيل سمر). بل قال (عطابيل بيض)، إنما أنا هكذا قلت إكراماً لأم عمرو وجاراتها! وعدا أن الأمر لم يتم، لا لغيْلان ولا لي، كما كان أحرى به أن يتم.

ذلك ـ ثم وقعت الطامة على (آل فريزر)، أنّ قلعتهم الحصينة استسلمت لفاتح عربي مصري مسلم هو محمد الفايد. كان وقع ذلك لا شك مرّاً عليهم وعلى طبقتهم، الـ Establishment، الذين هم عصب الأمبراطورية من قبل الملكة فكتوريا.

هؤلاء قوم، دخول نواديهم المنغلقة في «مي فير» والـ «مال» و «سان جيمس» مستحيل على الأجنبي، فما بالك بمصاهرتهم والاستيلاء على ممتلكاتهم؟

لذلك لم تكفّ صحفهم من يومها عن السخرية صراحة وتلميحاً، بهذا الدخيل الذي يصفونه بـ (مستجدّ النّعمة Upstart)، وذلك من أفظع الصفات في معجم تلك الطبقة.

ثم، ويا للمصيبة، أحبت أميرتهم وأم ملكهم المحتمل، ابن ذلك (الغازي) الأجنبي. وحتى في قمة الحزن في تلك المأساة، كتبت بعض الصحف، ومنها صحيفة الـ (قارديان) الرصينة عادة، مقالات لئيمة، منها مقالة تصف عماد الفايد رحمه الله بأنه «جقلو Gigolo». والكلمة تعني (الشاب الذي يبيع جسَده للنساء الطاعنات في السن)، فهل كان عماد الفايد في حاجة إلى المال؟ وهل كانت «ديانا»، الأميرة الشابة الجميلة في حاجة إلى العُشّاق؟

لا يخطر على بالك، لأجل ذلك، أنهم قتلوهما.

تأكّد أن ذلك لا يمكن أن يكون قد حدث. تلك الطبقة، رغم ما وصفتُ من أمرها، يحترمون القانون، لأنهم هم الذين شرّعوا القوانين. ويعرفون الأصول والحدود التي لا يصح تجاوزها. والقتل ليس من أساليبهم.

هذا، وقد مررت منذ أيام على محلات (هارودز)، وكان قد مضى على مصرع الأميرة (ديانا) وعماد الفايد أكثر من أسبوعين. وجدت طوابير كثيفة من الإنجليز يوقّعون على دفاتر العزاء ويضعون باقات الزهور.

ذلك في ظني أعجب ما ظهر من الشعب البريطاني إبان هذه المأساة. إنهم كما وصف الكتّاب، أحدثوا ثورة صامتة وفرضوا أنماطاً

جديدة من السلوك على الطبقات الحاكمة. إنما العجيب حقاً، أن الشعب البريطاني الطيّب ـ وهو كذلك بالفعل ـ قد اعترف صراحة بجواز حب أميرتهم لعربي مصري مسلم. وفي ذلك بالطبع، اعتراف ضمني بسيد مملكة «فريزر» الجديد، محمد الفايد.

هل هذا يعني أن تلك الطبقة العليا، قد اعترفت به أيضاً، وأنه لو طلب أن يكون عضواً في نادي (الأثينيم) العريق، فإنهم سوف يقبلونه؟ الله أعلم!

كاتبة من خارج القطيع

لسبب ما تمنّيت أن تفوز الكاتبة الهندية (أرُندهاتي روي) بجائزة (بوكر) هذا العام. وهي الجائزة الأدبية الكبرى في بريطانيا لأحسن عمل روائي ـ وليس لأحسن كاتب ـ وتُوازي جائزة الـ (بري قنكور) في فرنسا، وجائزة (بولتْزر) في أمريكا، وتُخصص للكتّاب باللغة الإنجليزية من بريطانيا ودول الكومنولث.

أهم من قيمتها المالية البالغة عشرين ألف جنيه، الشهرة الواسعة التي تهبط على الكاتب الفائز بين عشية وضحاها، وما يتبع ذلك من ارتفاع كبير في البيع. وقد ذكر الكاتب النيجري المولد (بن أوكْرى) أن مبيعات روايته «طريق الظمأ»، قفزت إلى مائة ألف نسخة بعد شهر واحد من حصوله على الجائزة.

إنني لم أقرأ رواية الكاتبة الهندية بعد، ولا أعرف كثيراً عن الكاتبة.

ولكن لعلّني تحيّزت لها لأنها من مقاطعة (كرالا) في جنوب الهند، وأن فيها دماءً لبنانية. وهذه الرواية هي أول عمل لها. ويدعو إلى العطف عليها أيضاً، أنها تنافس كتّاباً معروفين، وإنه لأمر عسير أن يشق أجنبي طريقه في أدغال العلاقات الأدبية المتشابكة في لندن.

قبل إعلان اسم الفائز، قالت سيدة اسمها (كارمن كاليل) - ربما خليل، فهي كما يقال أسترالية من أصل سوري - قالت في برنامج تلفزيوني أن رواية الكاتبة الهندية رديئة جداً، ولم تكن تستحق أن توضع في قائمة الروايات المرشحة للجائزة. وهذه السيدة، ذات نفوذ كبير، فهي صاحبة دار نشر معروفة، وكانت رئيسة لجنة المحكّمين للجائزة العام الماضي. وأشك أن تكون من أصل سوري.

لكن المعجزات تحدث أحياناً، فقد أعلنت رئيسة لجنة المحكّمين، وهي أكاديمية اسمها (جليان بير) أن رواية «إله الأشياء الصغيرة» للكاتبة الهندية (أرندهاتي روي)، قد فازت بجائزة (بوكر) لهذا العام. وقالت في تبرير منحها الجائزة:

«تلخص (أرندهاتي روي) بلغة ناصعة مدهشة تاريخ جنوب الهند، من خلال أختيْن توأمين في السابعة من العمر. القصة التي تحكيها محلية، ولكنها في الوقت نفسه ذات إشعاعات إنسانية واسعة. تتحدث عن الحب والموت والأكاذيب والقوانين. حكاية بسيطة واضحة، ولكنه وضوح مليء بالألغاز».

حين تسلّمت الكاتبة جائزتها، قالت بعفوية مؤثرة وهي تكاد تجهش بالبكاء، إنها لم تُعدّ كلمة للمناسبة ولا تجد الكلمات التي تعبّر بها عن سعادتها. بدت لي طبيعية جداً، وهي على درجة ملحوظة من

الجمال، فيها شيء من جاذبية أهل الشام، وقد ذكرتني بعض الشيء بغادة السمّان.

بعد ذلك حين استعادت رباطة جأشها، قالت لمراسلة التلفزيون:

«لو كان المحكّمون غير هؤلاء، لعل الجائزة كانت تذهب لشخص آخر».

وحين سئلت عن أهمية نيلها الجائزة قالت:

«بالنسبة لي، هذه الجائزة هي عن الماضي وليس عن المستقبل. لا أنكر أنني سعيدة بالفوز، ولكن الجوائز وتقريظ النقاد، أمور تخص القرّاء أكثر مما تخصّ الكاتب».

وحين سألتها مراسلة التلفزيون عن عملها الروائي القادم، أجابت:

«لن أكتب رواية لمجرد أنني فزت بهذه الجائزة. سوف أكتب رواية حين أجد رواية تُكتب».

وكما يحدث في مثل هذه المناسبات، سألتها المراسلة ماذا تنوي أن تصنع بقيمة الجائزة، وهو سؤال أرعن، لأن المبلغ بمقاييس هذه الأيام، ليس كبيراً. ولا شك أن الكاتبة عندها وجوه كثيرة لإنفاق المال، لإصلاح شؤونها الحياتية. ربما تشتري سيارة صغيرة! ربما تشتري ثلاجة أكبر! ربما تغيّر مكيّفات الهواء! ماذا يبقى بعد ذلك؟

لكنها أجابت السائلة إجابة فيها رصانة وحكمة فقالت:

«مسألة المال مسألة معقّدة، خاصة في الهند. إنها تضع عليَّ مسؤولية كبيرة. لكنني لن أفعل شيئاً، فقط لأخفف إحساسي بالذنب...».

ولمَ الإحساس بالذنب؟ إنه حال الفقراء الذين يجدون أنفسهم فجأة في خضمّ عالم الأغنياء وضوضاء الشهرة والأضواء. إذا ظلت على حساسيتها المرهفة هذه، فأي نجاح تُحرزه في المستقبل، سوف يبدو لها كأنه خيانة للعالم الذي وصفته في كتاباتها، وكان هو السبب في شهرتها.

بدت لي من إجاباتها القصيرة، أنها كاتبة قد عاشت مع نفسها زمناً، وتهيّأت للدخول في عالم الكتابة المحفوف بالمخاطر.

تُقارن بكاتبين من أصل هندي هما (نايبول) و(سلمان رشدي). وأرجو ألا يكون ذلك صحيحاً، فكلا الكاتبين قد بعُد عهدهما بالهند. الأول من الجيل الثاني أو الثالث من الهنود الذين هُجّروا إلى جزر الهند الغربية، وكتاباته تدل على أنه ضيّق الصدر بالهند وفقرائها. والثاني أحواله لا تُسرّ. وهذه الكاتبة ـ كما يبدو ـ مليئة بالنضارة والبراءة.

حنّا أرنْدت وسَماجةُ الشرّ (١)

كنتُ أول قدومي إلى لندن أوائل الخمسينيات، أُقسِّم العالم إلى قسمين ـ إما خير واضح وإما شرٌّ واضح. ثم نتيجة لمكابدة العيش في مجتمع له قيمٌ مختلفة، واقترابي أكثر من الثقافة الأوروبية، ومتابعة المسرح، خاصة مسرح شيكسبير و(برخْت)، أخذت أفهم أن قضية الخير والشر أكثر تعقيداً مما كنت أظن.

ثم في عام ١٩٦٣، قرأت كتاب (حنّا أرنْدت)، وقد صدر في ذلك العام، وهو (آيخمان في القدس ـ تقرير عن سماجة الشر).

التعبير باللغة الإنجليزية هو Banality of Evil. ويترجم صاحب معجم (المؤرد) ـ وهو معجم حسن ـ كلمة banal إلى (عادي ـ مبتذل ـ تافه). وذلك كله صواب. لكنني فضلت ترجمتها إلى (سَمج)، لأن الشيء (السمج) قد يكون عادياً ومبتذلاً وتافهاً،

ولكنه أكثر من ذلك، خاصة إذا أُلصق بالشر. وإذا قلتَ إن الشرّ (عادي)، فقد يتبادر إلى الذهن أن ذلك ما اعتاد عليه الناس. وقسْ على ذلك.

حين قرأ الشاعر الإنجليزي (و.هـ أُودنْ)، كتاب (حنّا أرندت) المُسمى «حالة الإنسان» وهو من أمهات كتبها، قال:

«أصادف من وقت إلى آخر كتاباً، حين أقرؤه يخيّل إليَّ أنه كُتب من أجلي أنا وحدي. وهذا الكتاب هو واحد من هذه الكتب القليلة المختارة».

لم يحدث لي ذلك حين قرأت كتابها «آيخمان في القدس»، ولكنني أدركت من أول وهلة، أنني إزاء كتاب نادر، من هذه الكتب التي تنظّم لك أفكارك المشتّتة، وتجد الكلمات والأوصاف لمعانٍ مُبهمة تحس بها ولا تفهمها تماماً. حين تفرغ منه، تشعر بالفعل ـ كما يُقال عن أمثال هذه الكتب ـ أن العالم يبدو مختلفاً.

كان (بن قوريون) رئيس وزراء إسرائيل حينئذٍ، يهدف من وراء تنظيم اختطاف (آيخمان) عام ١٩٦١، ومحاكمته في القدس، أن يقدّم إلى الرأي العام العالمي، نموذجاً للإنسان النازي الشيطاني البشع، الذي أشرف على إبادة عشرات الآلاف من اليهود في أفران الغاز. إنه عمل لا يتصوّره العقل في فظاعته، ولا بد أن الذين خططوا له ونفّذوه، لم يكونوا بشراً، بل قبيلاً من الشياطين.

طلبت (حنّا أرندت) من مجلة الـ «نيويوركر» أن ترسلها إلى القدس

لمراقبة المحاكمة. قالت إنها تريد أن تدرس عقل (آيخمان) عن قُرب لكي تفهم «مدى الانهيار الأخلاقي الشامل الذي أحدثته النازية في قطر أوروبي متحضّر مثل ألمانيا».

وقد ذكرت الكاتبة في ما بعد أنها اضطلعت بتأليف الكتاب من قبيل العلاج النفسي:

«من الآلام التي أرهقتني كوني يهودية صهيونية أدرتُ ظهري للصهيونية، وألمانية أدرت ظهري لألمانيا».

ما إن أخذت المقالات تظهر تباعاً في مجلة الـ «نيويوركر» حتى بدا واضحاً أن ذلك نوع من الكتابة لم تعهده الصحافة من قبل. كانت تجمع بين الجرأة العظيمة والعمق الفلسفي والأسلوب الذي يبدو بسيطاً في ظاهره، ولكنه مُفْعمٌ بالإيحاءات والدلالات.

ثم وسّعت (حنّا أرندت) من المقالات وأصدرتها عام ١٩٦٣ في كتاب هو «آيخمان في القدس ـ تقرير عن سماجة الشر».

العاصفة التي هبّت في وجهها كانت متوقعة، لأنها قبل إصدار الكتاب، كانت تثير سخط اليهود في إسرائيل وفي أمريكا بنقدها للفكر الصهيوني، ولسياسات إسرائيل، التي قالت إنها عجزت عن إرضاء طموحات الشعب العربي في فلسطين.

لكنها لم تتوقع أن يبلغ سخطهم الحدّ الذي بلغه، فقد اتّهموها بكراهية اليهود ـ وهي يهودية ـ وعداء إسرائيل، والتهوين من تضحيات الشعب اليهودي ومعاناته المأساوية، وقد بلغ من حنقهم

أنهم أرادوا أن يطردوها من حظيرة الانتماء اليهودي، كما يُطرد (المارق) الكاثوليكي من حظيرة الكنيسة الكاثوليكية.

وسوف نرى، أنها في كتابها هذا، قد ضربت بالفعل، في صميم (الميثلوجيا) التي أقامها اليهود عن مأساتهم، وظلوا يُذكون جذوتها بهذه المحاكمات. وآخرها محاكمة الفرنسي (موريس بابون) التي كتب عنها الكاتب ذو القلم الرشيق، سمير عطا الله، مقالة عميقة في صحيفة «الشرق الأوسط».

لقد صدق. مَنْ يعتذر من مَنْ في هذا العالم المُذنب؟ الشرّ عند (حنا أرندت) ليس شيئاً واضحاً تُميزّه فتقضي عليه، ولكنه مثل نبات فطري ينتشر على سطح الأرض. موجودٌ في كل مكان وفي كل وقت. وأهم أسبابه شلَل الفكر. الفكر هو المضاد الحيوي ضد الشر، لأنك حين تسلّط عليه الفكر، تجد أن الشرّ في جوهره خواء ليس وراءه شيء.

٣٤

حَنّا أرنْدت وسماجة الشرّ (٢)

منذ الصفحة الأولى في كتابها «آيخمان في القدس»، تأخذ حنا أرندت ـ بمهارة عظيمة تذكر بـ (برخت) ـ في خلق مناخ مسرحي هادئ على السطح ولكنه مملوء بالتوتر، بغرض توجيه ضربة موجعة للحكومة الإسرائيلية.

تصف القضاة الثلاثة بتقدير عظيم، فتقول: «لم يكن في سلوك القضاة أي شيء مسرحي. يدخلون قاعة المحكمة بوقار لا تكلّف فيه. يتابعون مجرى القضية باهتمام وتركيز. لا يخفون علامات الألم التي تظهر على وجوههم بشكل عفوي وهم يستمعون إلى شهادات البشاعات والفظائع.. يبدو على وجوههم الضيق من اللّت والعجن الذي يلجأ إليه المدعي العام.

«واضح أنهم ثلاثة رجال شرفاء... لم يحاولوا حتى أن يُخفوا أن

ثلاثتهم ولدوا ونشأوا وتعلموا في ألمانيا وأنهم يتقنون اللغة الألمانية. لم يكونوا ينتظرون الترجمة إلى اللغة العبرية، بل كانوا يتدخلون فوراً باللغة الألمانية إذا عرض لهم شيء..

«لم يكن يوجد أي شك أن رئيس القضاة القاضي (لانْداوْ)، هو الذي فرض أسلوب سير المحاكمة وحال دون أن تتحول إلى استعراض مسرحي، بسبب حب المدعي العام للاستعراض».

وتصف (حنا أرندت) قاعة المحكمة بأنها أشبه ما تكون بالمسرح فتقول:

«لا بد أن الذي صمم هذه القاعة كان يفكر في المسرح... يمكنك أن تخيل موضع الأوركسترا والـ (قالري) وموضع ٤ خشبة العرض، والأبواب على الجانبين لدخول الممثلين...».

ثم توجه الكاتبة ضربتها الموجعة:

«هذه القاعة بلا شك، مكان مناسب جداً للعرض المسرحي الذي خططه رئيس وزراء إسرائيل (ديفد بن ڤوريون) حين أحضر (آيخمان) قسراً من الأرجنتين إلى المحكمة الجزئية في القدس، كي يحاسب على دوره في (الحل النهائي لمشكلة اليهود)...

(بن ڤوريون) الذي يوصف بحق أنه «مهندس» دولة إسرائيل، هو المخرج المسرحي الذي يحرك الخيوط من وراء ستار. لم يحضر ولا جلسة واحدة من جلسات المحاكمة، ولكنه حاضر على الدوام، ينطق بلسان المدعي العام (جديون هاوسنر)، الذي يمثل الحكومة،

ويبذل جهداً خارقاً (لإطاعة أوامر سيده)».

قولها (إطاعة أوامر سيده) في وصف سلوك المدعي العام الإسرائيلي، عبارة موجعة في سخريتها، لأن (إطاعة الأوامر) كان عماد دفاع (آيخمان) عن نفسه... يعني أوامر (الفوهرر). فكأنها وضعت (ديفد بن قوريون) موضع (أدولف هتلر).

لماذا وكيف حدثت المأساة؟ لماذا اليهود؟ لماذا الألمان؟ ماذا كان نصيب أمم أوروبية أخرى في الذنب؟ ماذا كان مدى تواطؤ الحلفاء فيما حاق باليهود؟ كيف حدث أن اليهود أنفسهم مشوا إلى حتفهم كما تمشي الخراف إلى الذبح؟

قالت (حنا أرندت) أن القاضي (لانداو) بذل جهداً عظيماً ليمنع المحاكمة أن تغرق في طوفان هذه الأسئلة الكبيرة، وتضيف:

«كانت العدالة تقتضي أن تقتصر المحاكمة على شخص (أدولف آيخمان)، ابن (كارل أدولف آيخمان)، القابع في القفص الزجاجي الذي صنع لحمايته... رجل متوسط القامة، نحيل البُنية، في أواسط العمر. شعر رأسه أخذ ينحسر، وأسنانه غير منتظمة وبصره ضعيف. يميل برقبته النحيلة نحو منصّة القضاة. لا ينظر إلى الجمهور في القاعة أبداً.

«يبذل جهداً واضحاً كي يسيطر على أعصابه، لولا رعشة عصبية على جفنه، لا بد أنها ألمت به قبل المحاكمة بزمن.

«المحاكمة تتعلق بتصرفات هذا الرجل ودوره. ليست محاكمة

للشعب الألماني ولا للإنسانية. وهي لا تتعلق بقضية العنصرية ولا كراهية اليهود».

الواقع أن المحاكمة كانت تتعلق بتلك القضايا كلها، ولكن القضاة بتمسكهم بالقانون أرادوا أن يخلقوا منطقاً ونظاماً للفوضى التي تفجرها تلك الأسئلة الكبيرة. ومن السخريات العديدة في تلك المحاكمة، أن وضع القضاة ـ مع الفارق ـ كان يشبه وضع (آيخمان). هو أيضاً خلق (منطقاً) و(نظاماً) وسط الفوضى التاريخية والإنسانية والأخلاقية التي كانت تضجّ حوله. كان ينصاع للأوامر ويطبق القانون. و(القانون) هو الإرادة المطلقة للزعيم الأوحد (أدولف هتلر).

٣٥

حَنا أرَنْدت وسَماجةُ الشرّ (٣)

أخذت صورة (أدولف آيخمان) تبرز خلال سير المحاكمة، مناقضة للجرائم الفظيعة المتهم بها، والتي لم ينكرها، وبصورة (الوحش)، مصاص الدماء، التي أرادت الحكومة الإسرائيلية أن تؤكدها.

بدأ إنساناً (عادياً) في مظهره، عادياً في أسلوب حياته. كل الأطباء النفسيين الذين استجوبوه أكدوا أنه «إنسان عادي». وقال أحدهم إن علاقات (آيخمان) مع زوجته وأبنائه وأمه وأبيه وإخوته وأصدقائه «لم تكن فقط طبيعية بل كانت تدعو للإعجاب». وقال القسيس الذي داوم على زيارته في السجن «إنه رجل يحمل أفكاراً إيجابية جداً».

رفض (آيخمان) أن يُقسم على الإنجيل، لأنه، كما كان شائعاً لدى النازيين، قد قطع صلته بالمسيحية. قال إن الله، كما يعتقد هو

«حامل المعاني الأعلى». وتقول «حنا أرندت» عن ذاك:

«أن يوصف الله بأنه «حامل المعاني الأعلى» معناه أن يعطى رتبة في تسلسل الرتب العسكرية النازية، لأن النازيين غيّروا صفة (متلقي الأوامر) إلى (حامل الأوامر)، كأنهم بذلك يشيرون إلى الصفة الطقسية عند القدماء، التي هي (حامل الأنباء السيئة)، ما يرتبط بذلك من أهمية ومسؤولية يحظى بها الذين يكلفون بتنفيذ الأوامر.

كان «آيخمان» من النازيين المناط بهم حلّ المشكلة اليهودية (حلاً نهائياً)، فكان بذلك المعنى (حامل أسرار) أيضاً. وهي حظوة ملأت نفسه بالفخر!».

قال في المحاكمة، أنه لم يحسّ أبداً بتوبيخ الضمير وهو يؤدي واجبه ـ أي الإشراف على إرسال ملايين البشر إلى مصارعهم. قال إنه كان سوف يحس بوخز الضمير في حالة واحدة وهي (التقصير في تنفيذ الأوامر).

حاول المدعي العام لإسرائيلي أن يثبت في المحاكمة أن حافز (آيخمان) كان (اللاسامية) كراهية اليهود. وتقول (حنا أرندت) إن (آيخمان) كان صادقاً حين نفى ذلك نفياً قاطعاً.

كانت لديه أسباب شخصية كيلا يكره اليهود. حين كان طالباً في المدرسة الأولية كان أعزّ أصدقائه يهودي. وكان ابن عم زوجة أبيه (تزوّجها بعد موت أم آيخمان وهو في العاشرة)، متزوجاً من يهودية. كان أبوها رجل أعمال في تشيكوسلوفاكيا، وقد توسط لدى مدير شركة يهودي أن يجد لـ (آيخمان) عملاً في بداية

حياته. وتضيف الكاتبة:

«يبدو أنه حين أصبح مسؤولاً نازياً في (فينا) عن الإشراف على تنفيذ برنامج (الهجرة القسرية لليهود) من النمسا ـ وقد نفذ ذلك بنجاح كبير ـ كانت له في الوقت نفسه عشيقة يهودية.. كانت المعاشرة الجنسية مع اليهود، من أفظع الجرائم التي يرتكبها ضابط في جهاز حماية النظام النازي، الـ (S.S)...».

وتقول (حنا أرندت)، أن المدعي العام الإسرائيلي رفض تصديق (آيخمان)، لأن مهمته كانت أن يثبت العكس، وهو أن (آيخمان) كان يكره اليهود بطبيعته، لذلك ساهم في إبادة أعداد كبيرة منهم.

أما القضاة الثلاثة ـ وقد كانوا يتحرون العدل كما وصفت الكاتبة ـ فإنهم رفضوا أن يصدقوا (آيخمان)، لأن عقولهم لم تستطع أن تقبل أن إنساناً (عادياً)، ليس ضعيف العقل ولا مخبولاً، ولا متعطشاً للدماء ولا تحركه نوازع الكراهية، يعجز تماماً عن التمييز بين الخطأ والصواب، ويفعل ما فعله (آيخمان).

تقول (حنا أرندت) أن (آيخمان) من هؤلاء الناس الضعيفي الإرادة الذين ينضمون إلى أي شيء.. انضم إلى الحزب النازي رغم أنه لم يكن يؤمن بمبادئه وأفكاره.. لم يقرأ شيئاً من كتبه ولا حتى كتاب «كفاحي» لهتلر. انضم للحزب لأنه كان التنظيم السياسي المائل الذي ينضم إليه الناس.

ويصف (آيخمان) أن يوم ٨ أيار/ مايو ١٩٤٥ ـ وهو التاريخ الرسمي لهزيمة ألمانيا ـ ظل محفوراً في ذاكرته لأنه أدرك فجأة أنه

سوف يقضي بقية حياته بلا شيء ينضم إليه.

ويقول:
«أدركت أنني سوف أقضي بقية حياتي منفرداً، بلا رئيس ولا قائد ولا زعيم، لن تصلني توجيهات من أي أحد.. لن تعطى لي أية أوامر.. لن تكون ثمة بلاغات يطلب مني تنفيذها والعمل بموجبها.. باختصار.. حياة فارغة تمتد أمامي».

٣٦

حَنّا أَرَنْدت وسَماجة الشرّ (٤)

لم تكتفِ (حنّا أرندت) في محاولتها الباسلة في استقصاء طبيعة الشر. إنها أجّجت غضب اليهود بتصويرها لشخصية (آيخمان) أنه رجل (عادي) ـ بمعنى أن الشرّ قد يصدر من أي أحد وفي أي وقت وفي أي مكان ـ ولكنها زادت النار اشتعالاً بأنها حمّلت اليهود في ألمانيا قسطاً من المسؤولية عن مأساتهم.

كان صعباً عليهم أن يقبلوا أن (آيخمان) الذي كان أحد النازيين المسؤولين عن هلاك مئات الآلاف من اليهود في معسكرات الاعتقال وأفران الغاز كان رجلاً (عادياً). إنما أصعب من ذلك أن يقبلوا أن اليهود كانوا مشاركين بقدر أو بآخر فيما حدث لهم.

أخذ النظام النازي منذ استيلائه على السُلطة يعمل تدريجياً على تجريد اليهود من حقوقهم، ففي عام ١٩٣٣ أصدر قانوناً يحرّم على

اليهود الدخول في الخدمة المدنية. وكان مفهوم الخدمة المدنية مفهوماً واسعاً يشمل التدريس والعمل في الجامعات والمحاماة والطب وغيرها. وفي عام ١٩٣٥، صدرت القوانين التي عُرفت بـ (قوانين نورمبيرج) التي جرّدت اليهود من حقوقهم السياسية ولكنها تركت لهم حقوقهم المدنية. وكان ذلك يعني أن اليهودي لم يعد مواطناً ألمانياً، ولكنه ظل يحتفظ بكونه من رعايا الدولة الألمانية. وقد نصّ ذلك القانون أيضاً على تحريم التزاوج والمعاشرة الجنسية بين الألمان واليهود.

وتصف الكاتبة أن اليهود رغم تلك الإجراءات لم يحسّوا بالخطر المحدق بهم، ظنوا أنهم يستطيعون أن يتعايشوا مع الأوضاع الجديدة. وتُورد قول أحد زعمائهم في برلين:

«الحياة ممكنة تحت أي قانون مهما كان، إنما لا تمكن الحياة إذا لم يعرف الإنسان ما هو ممنوع وما هو مباح. يستطيع الإنسان أن يكون مواطناً مفيداً محترماً حتى لو كان عضواً في أقلية، وخاصة بين شعب عظيم مثل الشعب الألماني».

في تلك الفترة كان (آيخمان) يُعتبر (خبيراً في الشؤون اليهودية) خاصة بعد النجاح الذي أحرزه في (تنظيف النمسا من اليهود) ـ وهو الوصف النازي لعملية التهجير القسري. وقادة تعامله مع قيادات الحركة الصهيونية إلى قراءة كتاب «الدولة اليهودية» لـ «ثيودور هيرتزل»، وهو من الكتب القليلة التي قرأها طوال حياته.

قال إن الكتاب ترك آثاراً عميقة في نفسه إلى حدّ أنه أصبح (صهيونياً)، يؤمن بالحل السياسي لمشكلة اليهود وليس الحل

الجسدي ـ يعني الطرد بدلاً من القتل ـ كان يحتقر اليهود (الانتمائيين)، أي الذين كانوا يحبّذون فكرة (الذّوبان) في المجتمع الألماني. ولكنه كان يحترم الصهيونيين، لأنهم، كما قال، (مثاليون) مثله، مستعدون للتضحية بأي شيء وأي أحد في سبيل المبدأ. هو، كما قال، كان مستعداً للتضحية حتى بأبيه في سبيل المبدأ. وتقول الكاتبة في فقرة موجعة في جرأتها:

«أكبر (مثاليّ) تعامل معه (آيخمان) من قادة الحركة الصهيونية كان (الدكتور رودلف كاسْتنر). تفاوض معه أثناء عمليات الترحيل الإجباري لليهود من المجر، وتوصل معه إلى اتفاق يسمح (آيخمان) بموجبه بسفر بضعة آلاف من اليهود المجريين إلى فلسطين. لقاء ذلك يتعهد (كاسْتنر) بإقرار الهدوء والنظام في المعسكرات التي كان يُرحّل منها مئات الآلاف من اليهود إلى (آوشْفتْز) ليلاقوا مصارعهم إما بالتجويع أو بالقتل في غرف الغاز..

بضعة الآلاف الذين أنقذوا بتلك الطريقة كانوا من وجهاء الجالية اليهودية ومن المنتمين إلى منظمات الشباب الصهيونية. وقد وصفهم (آيخمان) بأنهم (العنصر البيولوجي الأرقى)، وكان إعجاب (آيخمان) بـ (الدكتور كاستنر) لا حدّ له، إنه ضحّى بغالبية أبناء ملّته من اليهود في سبيل (المبدأ)، وكذلك تكون التضحية في سبيل المبدأ»!

قال (آيخمان) أنه وزعماء اليهود (المثاليين) ـ يعني الصهيونيين ـ كانوا «يعملون يداً واحدة ويدفعون في اتجاه واحد». هم يريدون الهجرة، وهو أيضاً يريد ذلك. كانت سياسة الدولة في تلك المرحلة لا تمانع في الهجرة ضمن حدود وشروط معيّنة. فيما بعد سوف

تصبح السياسة هي (الإبادة) التي أُطلق عليها وصف (الحل النهائي).

لذلك سهّل لهم الإجراءات الإدارية، التي كانت تنتهي بتجريدهم من ممتلكاتهم وحقوقهم لقاء الإذن بالخروج. ودخل معهم في مقايضات بشرية، تنجو بمقتضاها قلة نظير هلاك الكثرة. ومقايضات مالية يدفع بمقتضاها أثرياء اليهود الألمان والمنظمات اليهودية في أوروبا وأمريكا لتهجير أعداد من فقراء اليهود الخاضعين للتابعية الألمانية.

كان من الأفكار التي طُرحت في تلك المرحلة، وادّعى (آيخمان) أنها نبعت من ذهنه، إيجاد (وطن) لليهود في جزيرة (مدغشقر). هذا ما عناه حين قال:

«.. الحل الذي خطر لي هو أن أضع أرضاً ثابتة تحت أقدامهم.. أن يكون لهم مأوى.. أن يكون لهم موطن. كنت أعمل نحو ذلك الهدف بسرور عظيم.. تعاونت معهم تعاوناً صادقاً للوصول إلى ذلك الحل.. وهو ما كانت تسعى إليه الحركات اليهودية نفسها.. كان ذلك في رأيي هو أفضل حلّ لتلك المسألة..».

٣٧

حنا أرندت وسماجة الشر (٥)

تقول (حنا أرنْدت) في الفصل الرابع من كتابها «آيخمان في القدس» وعنوانه «الحل الأول ـ الطرد»:

«بصرف النظر عن الشعارات والخلافات الإيديولوجية، فمما لا شك فيه أن اليهود الصهيونيين كانوا وحدهم الذين استطاعوا التفاوض مع السلطات النازية. والسبب بسيط. كانوا يعتبرون عدوّهم الأول ليس النازيين، ولكن (اتحاد المواطنين ذوي العقيدة اليهودية).

هؤلاء كانوا يمثلون نحو تسعين بالمائة من اليهود في ألمانيا، وكان هدفهم محصوراً في تحسين أحوالهم داخل ألمانيا ومناهضة اللاّ سامية.

أما الصهيونيون فقد تصوروا أول الأمر، أن صعود هتلر إلى السلطة هو بمثابة انتصار لفلسفتهم وهزيمة صريحة لفلسفة (الذوبان) في المجتمع الألماني. لذلك برروا لأنفسهم أن يدخلوا في عمليات تعاون مشروعة في نظرهم مع السلطات النازية. ظنوا أن بوسعهم التوصل إلى حلّ يكون في مصلحة الطرفين. إحباط اتجاه (الذّوبان) وتحقيق هجرة الشباب اليهود وأصحاب رؤوس الأموال إلى فلسطين.

كان الصهيونيون في نظر المسؤولين الألمان ـ أمثال (آيخمان) ـ هم اليهود (الفضلاء)، لأنهم كانوا مثلهم يفكرون بطريقة (وطنية متطرفة).

خلال هذه السنوات نجح الصهيونيون في إبرام اتفاق بين السلطات النازية والوكالة اليهودية في فلسطين، تسمح لليهودي المهاجر بتحويل أمواله إلى فلسطين ليس نقداً ولكن بواسطة شراء بضائع ألمانية وبيعها في فلسطين.

وقد نتج وضع غريب عن هذه الحيلة، وذلك أنه بينما كان اليهود الأمريكان في الثلاثينيات يكافحون من أجل مقاطعة السلع الألمانية، كانت فلسطين تغرق في بحر من السلع الألمانية.

وأهم من ذلك في ما يتعلق بـ (آيخمان)، كان المبعوثون السرّيون اليهود الذين كانوا يجيئون من فلسطين. هؤلاء كانوا يتعاملون مع الـ (جستابو) والـ (S.S) دون علم الصهيونيين الألمان، ولا الوكالة اليهودية. جاءوا بغرض الحصول على مساعدة هذه الأجهزة السرية الألمانية لإرسال أنواع معيّنة من اليهود الألمان إلى فلسطين التي كانت تحت الانتداب البريطاني. وقد وجدوا كل مساعدة من

الـ (جستابو) والـ (S.S).

وكما وصف David Kimche في كتابه «الطرق السرية ـ The Secret Roads» فإن هؤلاء اليهود القادمين من فلسطين، كانوا يتحدّثون لغة لا تختلف عن لغة (آيخمان).

أرسلتهم المستوطنات في فلسطين ليس بغرض إنقاذ اليهود. لم تكن تلك وظيفتهم. كان الهدف من قدومهم اختيار (المادة الصالحة) لتحقيق الحلم الصهيوني بالاستيطان في فلسطين. لم يكونوا يعتبرون الدول التي كانت تحوّل حياة اليهود إلى جحيم في مواطنهم، أي ألمانيا والنمسا، لم يكونوا يعتبرون هذه الدول أعداء، بل كان عدوهم الأول هو بريطانيا التي كانت تعرقل مخططاتهم في تحقيق هجرة اليهود إلى الوطن الجديد.

السلطات الألمانية كانت تساعدهم في اختيار (الروّاد الشباب) من بين آلاف اليهود في معسكرات الاعتقال. كانوا بالطبع لا يتصوّرون مدى المخططات النازية الشريرة التي تكشفت في المستقبل، ولكنهم هم أيضاً كانوا يعتقدون أنه ما دام الأمر يتعلق باختيار الأصلح للبقاء فليقم اليهود أنفسهم بمهمة الاختيار.

هذا الخطأ الفظيع في التقدير سرعان ما نتج عنه أن الأغلبية العظمى من اليهود، وهم الذين لم يتم اختيارهم، وجدوا أنفسهم محاصرين بين عدوّين ـ السلطات النازية من جهة، والسلطات اليهودية من جهة أخرى.

ويقول «كمشي» إن من أغرب ما حدث في الحقبة النازية أن

(آيخمان) الرجل الذي سوف يذكره التاريخ بوصفه أحد كبار السفّاحين لليهود، دخل أيضاً في قائمة الذين ساعدوا على إنقاذ اليهود».

حنا أرندت وسَماجةُ الشرّ (٦)

في يوم ٣١ من شهر تموز/ يوليو عام ١٩٤١، حدث أمر كان من شأنه أن يُغيّر أوضاع اليهود في ألمانيا تغييراً جذرياً ـ وبالضرورة وضع (آيخمان).

كان التعاون بين المنظمات الصهيونية وبين (آيخمان) وثيقاً إلى حدّ أنهم دعوه عام ١٩٣٧ لزيارة فلسطين والتعرف على إنجازاتهم في المستعمرات الجماعية التي أنشأوها. لكنها زيارة لم تدُمْ طويلاً لأن سُلطات الانتداب البريطاني أبعدتْه، فذهب إلى القاهرة حيث مكث فترة قصيرة التقى فيها بعدد من ضباط الـ (هاقانا) التي كانت نواة الجيش الإسرائيلي فيما بعد.

في تلك السنوات قفز (آيخمان) قفزات واسعة في السُلّم الوظيفي، فقد رُقّي من رتبة ملازم إلى رتبة جنرال في خلال خمس سنوات.

وكان المستقبل يبدو له مشرقاً، ففي المراحل الأولى من السياسة النازية، قبل أن يُسفر النظام بصراحة عن وجهه الدكتاتوري الإجرامي، ظن (آيخمان) أن مشكلة اليهود يمكن أن تُحلّ حلاً سلمياً.

كان، كما قال، يريد أن يضع أرضاً ثابتة تحت أقدامهم. فبالإضافة إلى فكرة إنشاء وطن لهم في جزيرة (مدغشقر) تحت الإدارة الألمانية، ظهرت أيضاً فكرة توطين اليهود الألمان في الجزء الذي اغتصبته ألمانيا من بولندا في محميّة تُحكم حكماً عسكرياً. وتخيّل (آيخمان) لوهلة، أن ذلك المشروع سوف يتحقق، وأنه هو سوف يكون بلا شك الحاكم العسكري لـ (الوطن) اليهودي في بولندا.

كل ذلك انهار فجأة. ففي ٣١ من شهر تموز/ يوليو عام ١٩٤١ - أي بعد أقل من شهر من هجوم ألمانيا على الاتحاد السوفياتي - تسلّم (هايدْرشْ) الرئيس الأعلى لأجهزة الأمن المتعددة لحماية (الرايخ) - تسلّم مذكرة سرّية جداً من (هيرمان قيرنْق) الرجل الثاني - بعد هتلر - في النظام النازي، يطلب منه «أن يتّخذ التدابير الضرورية لتنفيذ سياسة الفوهرر لحل المشكلة اليهودية حلاً شاملاً في الأراضي الخاضعة للنفوذ الألماني في أوروبا.

استدعى هايدرش (آيخمان) إلى مكتبه في برلين وقال له ببساطة:

«لقد قرّر الفوهرر التخلُّص من اليهود بإبادتهم جسدياً».

ويصف (آيخمان) شعوره، كما روت (حنا أرنْدت):

«ظل (هايدرش) صامتاً بعد ذلك، على غير عادته. لم أفهم في البداية ماذا يعني... ثم فهمت... لم أجد شيئاً أقوله... ماذا كان في استطاعتي أن أقول..؟ لم يخطر على بالي أبداً أن الأمر سوف يصل إلى هذا الحد... التصفية الجسدية!... فجأة انهار كل شيء... لم تعد لي رغبة في العمل... فقدت صوابي تماماً...».

لكن (آيخمان) الذي كان في طبعه إطاعة الأوامر، أذعن لتعليمات (هايدرش) له أن يذهب ويقابل أحد كبار مساعديه في جهاز الـ (S.S) الذي كان قد بدأ بالفعل في تنفيذ السياسة، وقال له:

«إذهب وانظر إلى ما أنجزه حتى الآن. أظن أنه يستعمل الخنادق التي حُفرت لصدّ الدبابات الروسية للتخلص اليهود».

وتقول الكاتبة إن (آيخمان) نسي أن يذكر في المحكمة في معرض الدفاع عن نفسه، أن (هايدرش) أبلغه أيضاً أن العملية كلها وُضعت تحت إشراف الـ (S.S) في القسم المسؤول عن (الاقتصاد والإدارة!)، وليس تحت الجهاز الذي يتبع له (آيخمان). وقد أبلغه أيضاً أن الرمز السرّي للعملية هو (الحل النهائي).

وتصف الكاتبة أن القيادات العليا في النظام النازي، كانوا على علم بخطة هتلر لإبادة اليهود منذ زمن. لم يكن (آيخمان) واحداً من تلك النخبة. كان أحد الذين تُعطى لهم أوامر محدّدة لتنفيذ واجبات معينة.

لكنه كان من المجموعة التي تلي تلك النّخبة مباشرة، وكان من الأوائل بينهم الذين كُشف لهم عن (السر). ثم تمضي فتقول:

«الذين اطّلعوا على خطة الفوهرر، أي على (السرّ)، لم يعودوا مجرد (حمَلة أوامر)، بل صاروا (حمَلة أسرار)، لذلك طُلب منهم أن يُقسموا على الكتمان.

صاروا يستعملون لغة مختلفة ويخضعون لرقابة لغويّة صارمة. لذلك يندر أن تجد في الوثائق المتعلقة بهذا الأمر عبارات مثل (إبادة) أو (تصفية) أو (قتل). كانت العبارات الرمزية في اللغة الجديدة هي (الحلّ النهائي) و(الإجلاء) و(المعاملة الخاصة). وكان الترحيل إلى (قتّو) يُوصف بـ (تغيير العنوان) و(إعادة التوطين).

هذا النظام اللغوي الجديد، لم يجعل القائمين على عملية الإبادة غير ملمّين بما يحدث. كانوا يعرفون تماماً. لكنه أتاح لهم وسيلة لوصف عملهم بغير الوصف الطبيعي له وهو (القتل) و(الخِداع).

كان (آيخمان) بما فيه من استعداد طبيعي للاستجابة للعبارات الجاهزة والكلمات المبتذلة، أرضاً خصبة لتلك اللغة الجديدة...».

حَنا أرَنْدت وسماحة الشرّ (٧)

ألحّت (حنا أرندت) في كتابه «آيخمان في القدس» على كشف مدى التعاون بين اليهود والنازيين، ليس بهدف تخفيف المسؤولية عن ألمانيا النازية ولا إدانة اليهود كما اتهمها الصهيونيون، ولكن لأنها أرادت أن تؤكد فكرتها ـ وهي الفكرة المحورية في الكتاب ـ أن الشرّ الذي أججه النازي لم يسلم منه أحد.

وقالت إنها تعرضت لتلك القصة التي أغفلتها المحاكمة، لأنها أرادت أن تفضح الانهيار الخُلقي الكامل الذي أوقعه النظام النازي بالمجتمع الأوروبي، ليس في ألمانيا وحدها ولكن في أوروبا بأسرها. ليس فقط بالجلادين النازيين، ولكن أيضاً بالضحايا اليهود أنفسهم، وتمضي الكاتبة فتقول:

«لم تكن توجد اختلافات في قضية التعاون. جاليات اليهود

(المنتمين) في وسط أوروبا، تعاونوا مع النظام النازي، بالقدر نفسه الذي تعاونت به جماهير اليهود الناطقة بلغة الـ (يدِّش Yiddish) في الشرق. في أمستردام كما في برلين وبودابست، كانت السلطات النازية تعتمد على اليهود أنفسهم في إعداد القوائم بأسماء الضحايا وممتلكاتهم وأموالهم.

كانوا يأخذون من الضحايا، المال الذي يغطي النفقات الإدارية ونفقات الترحيل وغيرها التي تتكلّفها الدولة في قتلهم. وكانوا يقومون بدور الشرطة في القبض على اليهود وزجّهم في القطارات التي تحملها إلى معسكرات الاعتقال والإبادة».

وتصف (حنّا أرندت) كيف أن رؤساء الجاليات اليهود، كانوا يتطوعون بتقديم بيانات إلى السلطات النازية، عن الممتلكات والأموال اليهودية التي رصدوها، لتتم مصادرتها. ثم تقول:

«كان الرؤساء اليهود يوزّعون على الضحايا الأربطة ذات النجوم الصفراء، التي يتحتم على اليهود وضعها على أذرعتهم. وأحياناً كانوا يبيعونها لهم. قامت تجارة رائجة في تلك الأربطة بعضها من قماش عادي، وبعضها من قماش أكثر جاذبية، وبعضها من البلاستيك يسهل غسله!».

كانوا يصدرون بيانات يتضح فيها إحساس الفخر بالسُّلطات التي خوّلهم إياها النازيُّون مثل البيان الذي أصدره المجلس اليهودي المركزي في (بودابست) وجاء فيه:

«إن المجلس اليهودي المركزي قد مُنح صلاحيات كاملة في أن

يكون مسؤولاً عن جميع الممتلكات المادية والروحية وجميع الأيدي اليهودية العاملة».

هؤلاء الزعماء ـ كما تصف الكاتبة ـ كانوا ليس أكثر من أدوات في أيدي النازيين لإبادة إخوانهم اليهود. وكانت حجتهم أنهم يضحّون بالقلة نظير نجاة الكثرة. من هؤلاء الدكتور (كاسْتنر) الذي ورد ذكره من قبل. وتعلق على ذلك بقولها:

«الدكتور كاستنر أنقذ في المجر بالتحديد ألفاً وستمائة وأربعة وثمانين شخصاً فقط مقابل هلاك أربعمائة وستة وسبعين ألفاً».

ثم في فقرة بالغة الفظاعة في صراحتها تقول الكاتبة:

«الحقيقة التي لا مراء فيها هي أن عمليات القتل نفسها في معسكرات الإبادة، كانت عادة تتم بأيدي يهود... القتل في غرف الغاز وسيارات الغاز المتنقلة وحُجرات الحرْق... كان العمال اليهود هم الذين يخلعون الأسنان الذهبية من أفواه الموتى ويقصّون شعورهم ويتولّون دفنهم...

الفنّيون اليهود هم الذين بنوا غرف الغاز في معسكر (تريسنْتشتان)... في ذلك المعسكر حتى (الجلاّد) الذي كان يتولى مهمة الشنق كان يهودياً...».

لماذا تعاون زعماء الجاليات اليهودية مع السلطات النازية إلى ذلك الحد، وهم يعلمون أنهم يتواطأون في فناء إخوانهم وفناء أنفسهم في نهاية الأمر؟ لماذا لم يرفضوا؟ لمذا لم يتمرّدوا؟

أجاب بعضهم في المحاكمة، أن اليهود لم تكن لهم أية حيلة. لم يكونوا منظّمين ولم تكن لهم أية حماية من أي نوع. وتردّ (حنا أرندت) قائلة:

«... ربما يكون ذلك صحيحاً ولكنه ليس كل الحقيقة. الحقيقة الكاملة هي أنه كانت توجد منظمات يهودية، محلية ودولية. منظمات سياسية ومنظمات اجتماعية. حيثما وُجد اليهود وُجدت منظمات وزعماء معترف بهم. أولئك الزعماء دون استثناء كلهم تعاونوا مع النظام النازي، بطريقة أو بأخرى، لسبب أو لآخر...

الحقيقة الكاملة هي أن اليهود لو كانوا حقاً غير منظمين ولم يكن لهم زعماء... فمما لا شك فيه أن عدد الضحايا لم يكن ليبلغ ما يقدر ما بين أربعة ملايين إلى ستة ملايين...

لو أنهم لم يطيعوا أوامر رؤسائهم المتعاونين مع السلطات النازية واعتمدوا على أنفسهم، فمن المؤكد أن غالبيتهم كانت سوف تنجو من الموت...».

حنا أرنْدت وسماجة الشرّ (٨)

في صيف عام ١٩٤٤، حين أصبح واضحاً أن هزيمة ألمانيا وانهيار الحكم النازي صار وشيكاً، أمر (هملر) ـ الذي كان قد خلف (هايدرش) في رئاسة أجهزة الأمن ـ بإيقاف جميع الإجراءات القائمة لتنفيذ سياسة (هتلر) فيما سُميّ بـ (الحل النهائي)، أي إبادة اليهود «في المناطق الخاضعة للنفوذ الألماني».

كذلك أمر (هملر) بإزالة المنشآت الواسعة التي كانت تتم فيها عمليات الإبادة، وطمس كل أثر للأعمال البشعة التي حدثت حتى ذلك الوقت.

فعل (هملر) كل ذلك من وراء ظهر (هتلر) الذي كان ماضياً في سياسته إلى آخر لحظة. كان (هملر) قد أخذ يُعدّ نفسه لدور ظن أنه مهيأ له، بالتفاوض مع الحلفاء بعد الهزيمة (لإنقاذ ما يمكن إنقاذه).

لم يكن (آيخمان) مشاركاً في عمليات الإبادة نفسها، ولكنه كان ضالعاً فيها، لأنه هو الذي كان يشرف على عمليات النّقل إلى المعسكرات. وكان يعلم إلى أينَ تذهب العربات والقطارات وماذا يحدث في نهاية المكان. وقد زار بعض تلك المنشآت ورأى بنفسه ما يحدث. تلك كانت التهمة التي اختُطف من جرائها من الأرجنتين، وجيء به إلى القدس، ليُحاكم على دوره في إبادة اليهود.

قال له (هملر)، وكانت من المرات القليلة التي يتكرّم عليه فيها بلقاء شخصي:

«إذا كنتَ حتى الآن قد شغلت نفسك بإبادة اليهود، فإني آمرك من الآن فصاعداً أن ترعاهم وتحسن معاملتهم كأنك ممرضة أو حاضنة لكل منهم.. تذكّرْ أنني أنا الذي أعطي الأوامر هنا».

اختلف الشهود، هل (هملر) صرخ في وجهه أم لا. قال (آيخمان) إنه لم يصرخ في وجهه، ولكنه لم ينْفِ أنه قال شيئاً قريباً من ذلك.

لم يكن لديه شك أن النهاية قد اقتربت. كانت جيوش الحلفاء تتقدم من جميع الجهات. وكان واضحاً لديه أن زملاءه الضباط في (الجستابو) والـ (S.S) بدأوا يستعدّون لترك السفينة الغارقة. أخذوا يُعدُّون أوراقاً شخصية مزوّرة ويعاملون اليهود معاملة حسنة. وظهر فريق (معتدل) بين الضباط يؤيد (هملر). ولم يكن ذلك خافياً على (هتلر) الذي قال إن ولاء أجهزة الأمن لم يعد يوثق به.

حتى في تلك الساعة المتأخرة ـ كما تروي الكاتبة ـ أوعز (هملر)

لبعض أعوانه المقربين بعقد صفقات مالية مع أثرياء اليهود، يسمح لهم بمقتضاها بالسفر وحمل جزء من أموالهم بالعملات الأجنبية. من هؤلاء ضابط يدعى (بكر ـ Becher) عقد صفقة مع شركة يهودية كانت من الشركات الكبرى في المجر وهي شركة (مانْفرد فايس Manfred Weiss) كانت تصنّع الطائرات وعربات النقل وغيرها، ويعمل فيها نحو ثلاثين ألف عامل.

بناء على تلك الصفقة استطاع خمسة وأربعون من أسرة (فايس) السفر إلى البرتغال ومعهم حصة كبيرة من أموالهم بعملات أجنبية، وآلت الشركة لـ (بكر) و(هملر).

كان (آيخمان) يدرك أن أوامر (هملر) له لإيقاف سياسة الإبادة، تتعارض كلية مع سياسة (الفوهرر)، فقرر أن يتجاهلها ويعرقل إجراءات (هملر) بقدر ما يستطيع. وحين أمره (هملر) وهو في (بودابست) بإيقاف ترحيل اليهود المجريين إلى المعسكرات، ثار وهدد بأنه سوف يطلب تأكيداً من (هتلر) نفسه باستمرار سياسة الإبادة.

وتقول الكاتبة، إن تلك كانت من المرات القليلة التي شعر فيها (آيخمان) بتضارب الولاء، ووجد الجرأة لعصيان رئيسه المباشر.

ظل حتى آخر لحظة، والنظام النازي يتداعى من حوله، ينفّذ سياسة (الفوهرر) الذي ارتبط في ذهنه بقدسية (حامل الأسرار الأعلى). كان هتلر في نظره هو (القانون). وكان متطرفاً في إعجابه به، وقد علّل ذلك بقوله:

«رجل يصعد من رتبة (عريف) في الجيش ليصبح حاكماً مطلقاً لدولة مثل ألمانيا، لهو بلا شك جدير بأن يُطاع»!

وتقول (حنّا أرندت):

«من العبث أن يحاول الإنسان أن يفهم، أيّ العاطفتين كانت أقوىٰ لدى (آيخمان) ـ إعجابه المفرط بـ (هتلر)، أم إصراره على أن يظل مواطناً مطيعاً للقانون في ظل الرّايخ الثالث، في وقت كانت ألمانيا تتحول فيه إلى حُطام.

أحسّ بجيَشان تلك العواطف في برلين في الأيام الأخيرة للحرب. استحوذ عليه الغضب وهو يرى زملاءه، الضبّاط النازيين، يستعدون للهرب قبل وصول الرّوس أو الأمريكان.

وأخيراً استسلم هو أيضاً للأمر الواقع، وأخذ يتنقل باسم مستعار. لكن الفوهرر كان قد مات، فمات بموته (قانون البلاد). أحس (آيخمان) أنه في حلّ من القسم الذي قطعه على نفسه، لأنه بوصفه ضابطاً في جهاز الأمن الـ (S.S) أقسم يمين الولاء لهتلر شخصياً، وليس لألمانيا، كان ولاؤه لـ (الفوهرر) وحده..».

٤١

حنا أرنْدت وسماجة الشر (٩)

لم تعترض (حنا أرندت) على إعدام (آيخمان)، ولكنها لم تقبل الذرائع القانونية التي لجأت إليها إسرائيل لتبرير اختطافه ومحاكمته وإعدامه. وفي الصفحات الأخيرة من كتابها تقدم منطوقاً بديلاً للحكم، تقول إن القضاة كان بوسعهم أن يوجّهوه إلى (آيخمان) حتى لا يبقى مجال للشك أن العدالة قد أخذت مجراها. وجاء فيه:

«... وإذْ إنك أيّدت ونفذت سياسة حرمت اليهود وجنسيات أخرى من حق العيش على الأرض، وافترضتَ أنت ورؤساؤك أن لكم مطلق الصلاحية في أن تقرروا من يستحق العيش على الأرض ومن لا يستحق ـ فإننا نجد ألّا أحد من الجنس البشري يرضى أن تكون أنت مشاركاً له في العيش على الأرض...».

هذه كلمات كأنها نبوءة، نظراً لما حدث بعد ذلك من الضحايا الذين تحوّلوا إلى جلادين، وهو من صميم ما أرادت الكاتبة أن تقوله.

قالت (حنا أرندت) أن المحكمة التي بتّت في قضية (آيخمان) في القدس، كانت (محكمة المنتصرين)، تماماً كما كانت محاكمات (نورنبيرغ) بعد الحرب العالمية الثانية:

«... الروس على الأرجح قتلوا خمسة عشر ألف ضابط بولندي وُجدت جُثثهم في غابة بالقرب من (سمولنّسك)... وأفظع من ذلك أن الحلفاء أزالوا مدناً ألمانية بأكملها بواسطة الغارات الجوية المكثقة. إنما البشاعة الكبرى كانت ضرب الأمريكان (هيروشيما) و(نغازاكي) بالقنابل الذريّة... لم يكن يوجد أي مبرر لاستعمال سلاح جديد له قدرة هائلة على الفتك والتدمير...

«... لم تتطرّق محاكم (نورمبيرغ) لتلك الفظائع التي اجترحها الحلفاء. السبب واضح وهو أن المحاكم الدولية، كانت دولية بالاسم فقط... كانت في الواقع محاكم المنتصرين...».

لم تكسب إسرائيل ـ كما تقول الكاتبة ـ أي شيء من محاكمة (آيخمان)، لا إعلامياً ولا معنوياً. أرادوا أن يتخذوا منه مثلاً على البشاعة والرعب النازي ويثبّتوا بواسطته، صورة عن معاناة اليهود على يديه وأيدي النازيين أمثاله. لكنّ الرجل خيّب ظنهم. تقول الكاتبة:

«... اتضح أن (آيخمان) لم يكن نوعاً فريداً من الناس. كان مثلَه

كثيرون. وهم أناس ليسوا شاذّين ولا منحرفين، بل أناس عاديون بدرجة مُرْعبة. تلك (العاديّة) من وجهة النظر القانونية والأخلاقية، لهي أكثر بشاعة من كل الجرائم التي ارتكبت... أصبح واضحاً ـ كما حدث من قبل في محاكمات (نورمبيرغ) ـ أن العالم يشهد ظهور نوع جديد من المجرمين، يرتكبون جرائمهم في ظروف يصعب عليهم فيها أن يدركوا أن الأعمال التي يقومون بها إنما هي جرائم صُراح».

لكن إسرائيل أصرّت على محاكمة (آيخمان) رغم الاعتراضات التي هبّت في وجهها. وكان بين المعترضين الفيلسوف الألماني الكبير وأستاذ الكاتبة (كارل جاسْبر). وأيضاً الفيلسوف الإسرائيلي المعروف (مارتن بوبر). وتقول الكاتبة في تعليل ذلك:

«أراد الإسرائيليون أن يؤكدوا أن اليهود لأول مرة منذ قرابة ألفي عام يحق لهم أن ينصّبوا أنفسهم قضاة في الجرائم التي ارتكبت ضدهم، وأنهم ليسوا بحاجة إلى حماية أي أحد، ولا إلى قانون (حقوق الإنسان) الذي يعلمون أكثر من غيرهم أنه لا تلجأ إليه إلّا الشعوب الضعيفة العاجزة عن حماية نفسها وفرض قوانينها.

هذا، وقد حكمت محكمة القدس الجزئية على (آيخمان) بالإعدام، وأقرّت المحكمة العليا الحكم. وجاء في آخر دفاع لـ (آيخمان) عن نفسه:

«... إنني أبداً لم أقتل أحداً ولم آمر بقتل أحد.. كل خطيئتي كانت إطاعة الأوامر... الطاعة تعتبر فضيلة في العادة... الزعماء النازيون استغلوا طاعتيْ للأوامر أبشع استغلال. أنا مجرد ضحية...

الزعماء وحدهم هم الذين يستحقون العقاب...».

وفي اليوم الحادي والعشرين من آذار/ مارس عام ١٩٦٢، بعد يومين فقط من صدور الحكم. نُفّذ حكم الإعدام على (آيخمان) شنقاً، وأُحرقت جثته، ونثر الرماد (خارج المياه الإقليمية الإسرائيلية). وتصف الكاتبة الساعات الأخيرة لـ (آيخمان) هكذا:

«مشى إلى المشنقة مرفوع الرأس بخطوات ثابتة. قبل ذلك طلب زجاجة من النبيذ الأحمر وشرب نصفها. رفض لقاء القسيس الذي أراد أن يهوّن عليه بقراءة الإنجيل. قال (لم يبقَ لي من الحياة إلّا ساعتان وليس لديَّ وقت أضيّعه).

مشى مسافة الخمسين ياردة بين زنزانته والمشنقة هادئاً منتصب القامة. حين أوثق الحراس ركبتيْه ورسغيْه، طلب منهم أن يحلّوا وثاقه حتى يستطيع أن يقف منتصباً. وحين وضعوا الغطاء الأسود على رأسه قال (لست بحاجة إلى هذا).

كان مسيطراً على نفسه تماماً. بل كان أكثر من ذلك. كان (هو نفسه) على أكمل وجه. وليس أدلّ على ذلك من سماجة كلماته الأخيرة. بعد أن أكّد أنه ليس مسيحياً ولا يؤمن بالبعث بعد الموت، هتف قائلاً:

«بعد قليل أيها السادة، سوف نلتقي جميعاً، هذا هو المصير المحتوم... عاشت ألمانيا!... عاشت الأرجنتين...! عاشت النمسا...! لن أنسى هذه البلاد أبداً...!».

هكذا وجد، وهو يقف أمام الموت وجهاً لوجه، العبارات المبتذلة، كأنه يخطب في تأبين شخص ما. وقد خذلته ذاكرته للمرة الأخيرة. كان مبتهجاً ونسي في غمرة ابتهاجه أن الذي سوف يموت ليس أحداً غيره، وأن الجنازة جنازته هو...».

٤٢

خواطر عن صلاح جاهين

لأمر ما وجدت نفسي منذ أيام في شارع (أدجوير رود)، ذلك الشارع الذي صار هو وشارع (كوينز ويي) على مقربة منه، واحة عربية في وسط لندن. كأنك في القاهرة أو بيروت. المكتبات العربية، والصحف والمجلات معروضة على قارعة الطريق. المطاعم والمقاهي والدكاكين ومحلات الحلاقة ومكاتب بيع العقارات وتأجير الشقق وتغيير العملات.

روائح اللحم المشوي والشاورما والشاي بالنعناع والشيشة ـ الأصوات العربية والعطور العربية النفّاذة ـ ولا تعدم أن تصادف أحداً تعرفه.

دخلت «مكتبة الأهرام» التي افتتحت منذ أشهر، لا شك بجهد الدكتور عمرو عبد السميع مدير «مكتب الأهرام» في لندن. وهو

إنسان كبير الذكاء عظيم النشاط. وقعت عيني أول ما دخلت على وجه صلاح جاهين الطيب بابتسامته المرهفة، على غلاف رباعياته.

كنتَ حين تجلس إلى صلاح جاهين في حياته، كأنك تجلس في فيء شجرة ممتدة الظلال، طيبة الثمار، تحوّم عليها الفراشات، وتصدح بين أغصانها الطيور. وهذه الرباعيات، يا لها من كنز لا أدري كم مرة اشتريتها، ثم فقدتها، لأن أحداً استعارها ولم يردّها. ولا تثريب عليه، فمنذا يردّ كنزاً لو عثر عليه.

قال رحمه الله:

يا باب أيا مقفول أمتى الدخول؟
صبرت يا ما... واللي يصبر ينول
دقّيت سنين والرد يرجع لي (مين)؟
لو كنت عارف مين أنا، كنت أقول

آخر ما لقيته كان في لندن، قبل وفاته بأشهر. جاء للعلاج في مصحة، لتخفيف وزنه.

استقبله (منسي) في المطار، وجاءا وتغديا معي في دارنا، ثم أخذه (منسي) إلى عزبته في (ساوثهامتن).

كان (منسي) فرحاً به جداً. لا أعرف أنه أحب إنساناً كما أحب صلاح جاهين. كان بينهما بعض وجوه شبه جسماني. قصر القامة وامتلاء الجسم والملامح الصعيدية. وأيضاً جمع بينهما الحزن.

(منسي) وراء الضوضاء والضحك والبهجة الظاهرية، كان حزيناً

جداً. وصلاح جاهين، كما نعلم، كان مملوءاً بذلك الحزن الكوني الذي هو من سمات العباقرة. وقد لاحظت في صداقتهما أمراً عجيباً. كل واحد منهما كان يشفق على الآخر ويعطف عليه، ويظن أنه هو الذي يحتاج إلى رعاية، فكانت بينهما أبوة متبادلة.

دخل الربيع يضحك لقاني حزين
نده الربيع على اسمي لم قلت مين
حطّ الربيع أزهاره جنبي وراح
وأيش تعمل الأزهار للميتين؟

(منسي) هو الذي عرّفني بصلاح جاهين أوائل الستينيات في القاهرة. ربما مع زكريا الحجاوي ومحمود السعدني وطوغان، أو ربما في سهرة من سهرات (الحرافيش) التي كان يرتادها نجيب محفوظ مع قلة من أصدقائه المقربين، وكان (منسي) يقتحم عليهم خلوتهم دون استئذان.

ثم التقينا في لندن وفي القاهرة لقاءات متباعدة، ودائماً مع (منسي)، لأنه كان أول ما يحل بالقاهرة، يسعى إلى لقاء صلاح جاهين.

ذلك اللقاء الأخير في لندن. ربما أواخر الصيف عام ١٩٨٥. أذكره هادئاً مطمئناً، وكان كعادته دمثاً غامر الإنسانية. كان حديثه عادياً ليس فيه لمعات الفكر وشطحات الخيال التي تجدها في فنّه. لعله كان متعباً من السفر. ولعله آثر أن يترك المجال لـ (منسي).

عدت إلى باريس بعد أيام، ولم ألبث أن نُقلت إلى مكتب اليونسكو في الدوحة. وظللت أتابع أخبار صلاح جاهين من

(منسي). أخبرني أنه عاد إلى القاهرة بعد أن أتمّ علاجه صحيحاً معافى وأن روحه المعنوية عالية جداً. ثم في ربيع عام ١٩٨٦ بلغني نبأ وفاته.

قال رحمه الله:

على رجلي دم نظرت له ما احتمل
على أيدي دم، سألت ليه، لما وصلت
على كتفي دم وحتى على رأسي دم
أنا كلّي دم... قتلت ولا اتقتلت؟

وعند الشيخ جلال الدين الرومي في (المثنوي) ـ وكان من الذين بين صلاح جاهين وبينهم صلة قربى:

«أيها القلب. إنك لتكون ممزقاً بالوساوس لو فرّقت بين الطرب والبلاء... أوَليس حرمانك من مرادك هو مراد الحبيب؟ فكل نجم من نجومه ثمن لدم مائة هلال، وإراقة دم العالم حلال له. ولقد أخذنا الأجر، ونلنا ثمن الدماء، ولهذا فقد سارعنا إلى المخاطرة بأرواحنا. آه! إن حياة العاشقين في الموت، وإنك لن تملك قلب الحبيب إلّا بفقدان قلبك!».

وعند صلاح جاهين:

من بين شقوق الشيش وشقشقت لكْ
مع شهقة العصافير وزقزقت لك
نهار جديد أنا.. قوم نشوف نعمل إيه
أنا قلت يا ح تقتلني يا ح اقتلك

الخيّام

كان من حسن حظي، أنني خلال وجودي في أصيلة بالمغرب الصيف الماضي، اطلعت على تجربة فنية مدهشة، اشتركت فيها الفنانة اللبنانية السيدة يسار نعمة صفي الدين، والرسام السوداني الدكتور راشد دياب. تعاونا معاً لإنجاز كتاب يتضمن عدداً من رباعيات الخيام، هو تحفة فنية نادرة.

السيدة يسار نعمة رسامة وخطاطة، وهي تعيش مع زوجها في المغرب منذ سنوات وابنتها متزوجة من الفنان المغربي الشهير محمد المليحي.

وقعت في عشق رباعيات الخيّام، وأصبح العشق هوساً لازمها سنوات طويلة. وهي تصف ذلك بقولها:

«ملأني شغفي بالرباعيات حتى أصبحت هاجسي الليلي. تتبعت أثرها وقادني شوقي إلى ولوج أعماقها. هكذا رافقت الخيّام وعشت زمانه بنشوة حتى تجذرت في الكلمات. راهنت على اقتحام التجربة وبدأت مليئة برغبة بلا حدود...».

وتقول في موضع آخر:

«من البحر اصطدت محّارة غرقى طِرتُ بها بأجنحة الوجد. كان بعضي عصيّاً على بعضي. رفضت التغرب والتقيت بذاتي. لخصت المسافات وصادقت زمني وفتحت محارتي لؤلؤة من نور وكان التعب قد أثقلني وخدر يدي...».

الشاعر الذي يجد من يتأثر به تأثرَ السيدة يسار نعمة بالخيام بعد قرابة ألف عام لهو شاعر محظوظ حقاً.

قضت سنوات من الدراسة والبحث والمقارنة بين الترجمات العربية العديدة للرباعيات. وقد اشتهر منها ترجمات أحمد الصافي النجفي والسباعي وأحمد رامي وإبراهيم العريض، وهذه كلها عن الفارسية. وربما تكون أكثر الترجمات العربية ذيوعاً هي ترجمة وديع البستاني التي أخذها عن الترجمة الإنجليزية للشاعر الرومانسي الكبير إدوارد فتزجرالد.

استقر رأيها آخر الأمر على الاعتماد على ترجمتين عن اللغة الفارسية، ترجمة الشاعر العراقي أحمد الصافي النجفي وترجمة العلاّمة عبد الحق فاضل، وهو عراقي أيضاً، وترجمته ربما لعدم توفرها في المكتبات ليست معروفة على نطاق واسع.

وحسناً فعلت ـ الشاعر الإنجليزي لم يترجم للخيام، ولكنه أعاد صياغة شعره في قالب جديد ـ لذلك فإن ترجمة البستاني، رغم عذوبتها وسلاستها، تبعد قليلاً أو كثيراً عن الأصل الفارسي. وعلى سبيل المثال، نجد أن البستاني ترجم إحدى الرباعيات هكذا:

وقمامي غصن ظليل بقفر
ورغيفات مع زجاجة خمر
كل زادي والأهل ديوان شعر
وحبيب يهواه قلبي المعنّى
يشجى يذيبني يتغنى
هكذا أسكن القفار نعيماً
وأرى هذه القصور خراباً

الأستاذ عبد الحق فاضل يترجم الأبيات نفسها هكذا:

أنا آثرتُ من الدنيا رغيفين وخلوة
وصرفتُ النفس عن كل غنى فيها وسطوه
إنني ابتعت بروحي كلها دروشة
فلكم ألفيت في متربة الدرويش ثروة

واضح التجوز في ترجمة فتزجرالد التي أخذ عنها البستاني، وقد حوّل الشاعر الفارسي بتناقضاته وهمومه إلى شاعر إنجليزي رومانسي على طراز (روزتي).

اختارت السيدة يسار عدداً من الرباعيات وكتبتها بخط كوفي جميل، بحيث تبدو الحروف كأنها أصداء لمعاني الشعر.

ثم أضاف الفنان السوداني البارع الدكتور راشد دياب الأستاذ في جامعة مدريد، وهو يعيش في إسبانيا منذ زمن، أضاف أعماقاً وأبعاداً شاسعة لمعاني الشعر وخطوط السيدة يسار، بألوان مدهشة، ألوان الياقوت والزمرد والعقيق والذهب والسندس والسماء والبحر والجبال، بحيث إن المتصفح للكتاب يجد نفسه بالفعل في غابة أو حديقة من المعاني والخطوط والألوان، يذهب فيها العقل ويتوه الخيال.

٤٤

بطاقة لعيد الميلاد

هل ثمة ما يبشر بالأمل في هذا الوقت القلق حين تنتهي أشياء وتبدأ أشياء؟ ها هوذا عام قد انتهى وعام آخر قد بدأ، ولم يبق على مطلع القرن الحادي والعشرين غير عام واحد.

لكن ما شأننا نحن بذلك؟ نحن نتبع التاريخ الهجري، وحسب هذا التقويم فإن قرننا، وهو القرن الخامس عشر، قد بقي منه أكثر من نصفه، وعندنا فسحة من الوقت للتفكير والحزن والاحتفال.

الأمريكان، من أكثر الناس حفاوة بعيد الميلاد، يذهبون في ذلك مذاهب عجباً. ولم ينسوا في غمرة بهجتهم وجيشان عاطفتهم الدينية، أن يرسلوا إلى العراق بطاقات عيد الميلاد، لا جرم أنها في هيئة صواريخ ظنوا أنها تسقط على بغداد والبصرة والكوفة والموصل، وكل تلك المدن ذات الأسماء التي يُحدث ترددها

قشعريرة في البدن.

أليست بغداد هي حاضرة الخلافة العباسية المشرقة؟ أليس فيها الكرخ والرصافة والجسر، والكاظمية مثوى الأئمة من آل البيت؟ أليس فيها الأعظمية حيث مسجد الإمام الجليل أبي حنيفة النعمان ومثوى رفاته؟

أليست الكوفة هي أعرق مصر في الإسلام، أنشأها الخليفة الذي هو من فلتات الزمان عمر بن الخطاب، ثم صارت عاصمة لخلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وضمت رفاته الطاهرة؟

إنما الأمريكان لم يضربوا العراق. من قال إنهم ضربوا العراق؟ إنهم أرسلوا صواريخهم بكل محبة وكرم كما ترسل بطاقات عيد الميلاد، في أواخر شهر كانون الأول/ ديسمبر من عام ثمانية وتسعين وتسعمائة وألف، العام الذي هو لهم في قرن هو قرنُهم، فسقطت في مكان ما ليس هو العراق. كيف لا؟ العراق يعيش في أول شهر رمضان من عام تسعة عشر وأربعمائة وألف ـ هذا هو عامهم وذلك هو قرنهم ـ فكيف إذن تقع صواريخ أُرسلت في زمان على قوم يعيشون في زمان آخر؟

انظر إليهم يموجون في أسواقهم يمتارون لصيامهم في شهر رمضان المبارك، يشترون قدر طاقتهم القليل المتيسر لهم من قمر الدين والزبيب والتمر والسمن والأرز ـ لن يموتوا من الجوع لأنهم اعتادوا الجوع ـ وهذا شهر رمضان، شهر الجوع المقدس.

وغداً سوف يفرحون بعيد الفطر المبارك، فرحاً أكثر مما تبرره

ظروفهم. ما شأنهم بفلان وعلّان وهذا وذلك؟

ولعل أحداً منهم خطر على باله ذلك البيت لشاعر قديم نسي الناس اسمه لكثرة ما رددوا قوله:

تـأبـى الـرّمـاح إذا اجـتـمـعـن تـكـسُّـراً
وإذا افــتــرقــن تــكــســرت آحــاداً

إذا خرجت من زمانك وفارقتَ قومك «فكل ما عُلِفتَ من خبيث وطيب» كما قال الشاعر القديم.

ولا بد أن أحدهم تذكر ذلك البيت من الشعر القديم أيضاً الذي تمثل به الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه:

إذا كـنـتُ مـأكـولاً فـكـنْ أنـت آكـلـي
وإلّا فــأدركــنــي ولــمّــا أُمَــزَّق

ويا ليت صاحبهم كان قبل أكثر من عشر سنوات تذكر قول دُريد ابن الصُمّة الذي تمثل به الإمام علي رضي الله عنه:

ومــا أنــا إلّا مــن غــزيّــة إن غــوت
غــويــتُ وإن تــرشُــد غــزيّــة أرشُــد

هل ثمة ما يبشر بالأمل للأمة العربية في مجال الثقافة على الأقل؟

نعم. هل قلت نعم؟ بلى، قلت نعم.

أشجان رمضانية

لا أظن أن أحداً ينسى الأماكن التي صام فيها، وهل كان الفصل صيفاً أم شتاء. وبماذا أفطر ومع من أفطر. وهو قد ينسى بقية أيام العام باستثناء أيام قليلة تباغته فيها الحياة، كما تفعل بإحدى مفاجآتها السارة أو المحزنة.

الأيام العادية تمضي تباعاً طوال العام. لا يكاد الإنسان يحس بمرورها. كأن الزمن نهر سرمدي.

ولكن يوم الصائم ـ وهذه عندي من حِكم الصوم ـ يتفلّت قطرة قطرة. الدقائق تمر كأنك تسمع وقع خطاها، الصائم يحس بالزمن لأول مرة خلال العام، إنه (كم) يمكن أن يوزن بميزان ويقاس بمقياس.

يختلط جوعه وظمأُه ـ خاصة إذا كان الوقت صيفاً حاراً ـ مع كل دقيقة تمر مكوناً عجينة من المكابدة والسعادة. فإذا انقضى اليوم يحس الصائم أنه قد قطع شوطاً مهمّاً في رحلة حياته. وإذا انقضى الشهر بطوله، يشعر حقاً أنه يودّع ضيفاً عزيزاً طيّب الصحبة ولكنه عسير المراس.

إنني أذكر بوضوح رمضانات صمتها عند أهلي في صباي الباكر، أول عهدي بالصيام. كنا قبيلة أفرادها كلهم أحياء، الجدود والآباء والأعمام والأخوال وأبناء العمومة والخؤولة.

لم يكن الدهر قد بدأ بعدُ يقضم من جسمها كما يقضم الفأر من كسرة الخبز.

كانت دُورنا تقوم على هيئة مربع، وفي الوسط باحة واسعة فيها رقعة رملية. فكنا نجتمع للإفطار في تلك الرقعة.

نتولى نحن الصبية أمر تنظيفها وفرش الحصر عليها، وقبيل المغيب نجيء بسفر الطعام من البيوت، ونجلس مع كبارنا ننتظر تلك اللحظة الرائعة حين يؤذن مؤذن البلدة ـ غير بعيد منا ـ (الله أكبر) معلناً نهاية اليوم. وكنت في تلك الأيام، قبل أن يقسو القلب ويتبلد الشعور، أحس أن ذلك النداء موجّه لي وحدي، كأنه يبلغني تحية من آفاق عليا، أنني انتصرت على نفسي.

أذكر جيداً طعم التمر الرطب، وهو أول ما نفطر به، حين يوافق رمضان موسم طلوع الرطب. وكانت لنا نخلات نميزها ونعنى بها. لها ثمر شديد الحلاوة، تخرجه باكراً. كانوا لا يبيعون ثمارها

ولكنهم يدخرونه لمثل تلك المواسم. وقد زرعت أصلاً من أجل ذلك.

وأذكر مذاق الماء الذي يُصفّى ويبرد في الأزيار أو في القِرَب، خاصة ماء القرب، الذي يخالطه شيء من طعم الجلد المدبوغ، وشراب (الابري) وهو يصنع من خبز يكون رقيقاً جداً أرقّ من الورق. تضاف إليه توابل، وينقع في الماء ويحلّى بالسكر.

ومذاق (الحلو مر) وهو أيضاً من عجين مخلوط بتوابل خاصة. وحين ينقع في الماء يكون ذا لون أحمر داكن الحمرة. هذان الشرابان لا يوجدان إلّا في السودان، وهما مرتبطان برمضان. ولهما رائحة عبقة فوّاحة. تلك وروائح أخرى، كان خيالي الصبي يصورها في ذلك الزمان، كأنها تأتي من المصدر الغامض نفسه الذي يأتي منه شهر رمضان. كان طعم الزمان تلك الأيام حلواً مخلوطاً بمرارة لها مذاق العسل.

لم نكن نأكل كثيراً في إفطارنا. لا توجد لحوم أو أشياء مطبوخة، كل واحد يتعشى بعد ذلك في داره على هواه، وغالباً ما ينتظر السحور من دون عشاء.

نصلي ونفطر على مهل، ونقوم نحن الصبية فنحضر الشاي والقهوة (الجبنة). وكان يسمح لنا بشرب القهوة فقط في شهر رمضان، فالقهوة عدا ذلك للكبار وحدهم، ولم يكن ذلك نوعاً من الحظر، ولكن من قبيل الاقتصاد في النفقة، فقد كان البن أغلى من الشاي. يساوونا بأنفسهم لأننا نصوم مثلهم.

ثم يأخذون في الحديث ونحن الصبية نسمع ولا نتكلم، ويا له من حديث، كأن رمضان يخرج منهم كنوزاً دفينة. كنت أستمع إليهم وكأني أشرب ماء القرب البارد وآكل التمر الرطب.

لا أعلم كم كان (معدل الدخل) عندنا تلك الأيام. ولم أكن أعلم شيئاً عن الحالة الاقتصادية في القطر، ولم يكن يهمني من الذي يحكم البلد. كنت أعلم أن الإنجليز موجودون في الخرطوم، وأحياناً يمر بنا واحد منهم، كما يمر طائر غريب في السماء.

لكننا كنا بمعزل عن كل ذلك، نحسّ بالعزّة والمنعة والطمأنينة والثراء.

كنت أعلم أن ذلك الإحساس حق، من الطريقة التي يمشي بها آبائي وأجدادي، لا يمشون مختالين، ولكنهم يمشون على وجه الأرض ثابتي الخطى مرفوعي الرؤوس، لا يخامرهم شك أن الأرض أرضهم والزمان زمانهم.

ولعل الإنجليز خرجوا آخر الأمر لأنهم ضاقوا بإحساس الحرية ذاك لدى السودانيين، كأنهم لم يفهموا أو رفضوا أن يفهموا أنهم أمة مهزومة مستعمرة.

الإحساس بالمذلّة والهوان حدث لهم بعد ذلك، على أيدي بعض أبنائهم الذين انتزعوا الحكم من الذين ورثوه عن الإنجليز، ومنهم من كان صبياً مثلي في ذلك الزمان الأغر، وجلس على بقعة رمل كما جلست، مع آبائه وأجداده في إفطار شهر رمضان.

كنا حقاً سواسية كأسنان المشط. ولا بد أنه ذاق المذاقات نفسها وشمّ الروائح نفسها، واستمع مثلي إلى أحاديث آبائه وأجداده، حديثاً مليئاً بالمحبة والحكمة والطمأنينة. فماذا أصابنا بعد ذلك، أم ماذا أصاب الزمان؟

احتفال السعوديين (١)

السعوديون يحتفلون هذه الأيام بالذكرى المئوية لتأسيس دولتهم العتيدة. وهو، كما لاحظت خلال الأيام القلائل التي قضيتها في الرياض إلى الآن، احتفال رصين، كما يليق بهذه الدولة الرصينة.

لم أر صواريخ نارية تطلق في الهواء، ولا بالونات ملونة ولا طوابير من الشباب والأطفال، يجوبون شوارع المدينة ويهزجون بالأناشيد الحماسية رافعين صوراً ضخمة لقائد المسيرة وحامي العشيرة، ولا أياً من مظاهر الطبل والزمر التي تصحب هذه المناسبات في بعض البلاد ـ وهو في حدّ ذاته أمر يدعو إلى الغبطة، وينبئك بالكثير عن هذه الدولة ـ وقد لفتت نظري كلمة الأستاذ عبد الرحمن السماري في صحيفة «الجزيرة» كأنه يدافع فيها أو يعتذر عن هذا الأسلوب السعودي في الاحتفال يقول:

«لقد احتفلنا بالمناسبة بطريقتنا: نعم ـ نحن لنا خصوصيتنا ولنا تميزنا ولنا منهجنا ـ لن تكون احتفالاتنا مثل احتفالات الآخرين أبداً، لأن دستورنا غير دستورهم ـ دستورنا هو القرآن الكريم، وهو منهجنا ومنه انطلقت هذه البلاد، وإليه تحتكم في كل شؤونها.

في المناسبة المئوية، كنا نسترجع الذكريات ونبحث في سنين خلت، ونستلهم العبر ونقرأ الدروس ونقيّم تجربتنا أكثر من أنه احتفال».

صدقت ولكنه احتفال أيضاً ولولا أنك لم تكن بحاجة إلى الدفاع أو الاعتذار. الناس جميعاً قد أدركوا أن ثمة تاريخاً سعودياً مميزاً، وأسلوباً مميزاً في الحكم، ونهجاً سعودياً مميزاً في السياسة. وواضح أن العالم أخذ يفهم أكثر فأكثر، أن هذا التميز السعودي، ينبع من قيم إنسانية أصيلة جديرة بالاحترام.

ولا يخفى أن الدولة السعودية، دولة ليست كغيرها من الدول، لأنها تقوم على أرض باركها الله، وجعلها منطلقاً وحمى لدينه الحنيف. وفيها المدينتان المباركتان اللتان تهفو إليهما قلوب المسلمين شرقاً وغرباً.

وإن كان العاهل الكريم لهذه الديار الكريمة قد ارتضى لنفسه لقب (خادم الحرمين الشريفين) فإن الأقدار ـ بذلك ـ قد ألبسته عباءة من شرف لا يدانيه أي شرف.

يحق للسعوديين أن يفرحوا ويفخروا بالإنجازات الضخمة التي حققتها دولتهم، وأن يحتفلوا بذكرى مؤسس دولتهم. وهو رجل لا يكاد يشذ أحد عن الإجماع التاريخي حوله، بأنه نمط فريد من

الأبطال الذين حفزوا قافلة الإنسانية في بحثها الدؤوب عن التوحد والاستقرار والرفاه.

ونحن نفرح ونفخر معهم، ولا نحس أننا متطفلون على احتفالهم سواء بوصفنا أخوة لهم يسعدنا ما يسعدهم، أو بوصفنا بشراً يسعدنا ما يسعد الإنسانية عموماً، وأيضاً لأننا نطرب لمعاني البطولة والشرف أينما وجدت.

لا تكاد توجد دولة عربية أو إسلامية لم يصلها من خير هذه البلاد. ونحن في السودان خاصة، ليس لنا ـ مع جارتنا الشقيقة مصر ـ أعزّ من هذه الديار، ومهما نسينا، فإننا لن ننسى أبداً أن خادم الحرمين الشريفين حفظه الله، قال للمشير عبد الرحمن سوار الذهب حين كان رئيساً، وكان السوداني في ضائقة من الفيضانات والمجاعة (سوف نقتسم معكم حتى رغيف الخبز). وكذلك فعل. بلى، نحن يجب ألا نكون متهمين حين نشارك إخواننا السعوديين فرحتهم بالذكرى المئوية لقيام دولتهم، لأننا، بالإضافة إلى ما ذكرت، نسعد أيضاً حين نرى أي رقعة من أرجاء الوطن العربي على اتساعه، قد جمعت شبابها، ووحدت إرادتها، وحزمت أمرها، واستيقنت من أهدافها، وما أجمل ما قال خادم الحرمين الشريفين في هذا المعنى:

«... وإذا كان من حقنا أن نفخر ونعتز بهذا القائد الملهم المجدد، فإن من حق كل إنسان أن يشترك معنا في هذا الفخر والاعتزاز، باعتبار الملك عبد العزيز زعيماً عالمياً أقام دولته على أسس السلام واحترام حقوق الإنسان».

احتفال السعوديين (٢)

بعد تلك الاحتفالات والبهجة والحفاوة، بعد العرضة وسباق الهجن والبحوث والدراسات، كيف كان مذاق تلك اللحظة الهائلة، اللحظة البكر، ليلة بلغت الملحمة البطولية ذروتها؟ حين، كما وصف الأمير الشاعر بدر بن عبد المحسن:

تنفست ريح الزّهر في الخمايل
وفكّت أزارير الدجى عن نحرها

الدراسات القيمة التي توالى تقديمها في قاعة الملك فيصل ـ أكثر من مائتي بحث في خمسة أيام ـ كانت دراسات مفيدة من دون شك، لم تكد تترك جانباً من جوانب حياة الملك عبد العزيز رحمه الله ونضاله البطولي إلّا أحصتها. وحسب الإنسان أن ينظر نظرة سريعة إلى بعض عناوين تلك الدراسات، ليدرك مدى ثرائها وتنوعها وشمولها:

- المملكة العربية السعودية عند منعطف عصر جديد ـ وثائق من الأرشيف التاريخي لسان بطرسبرج.
- نظرة المستشرقين للملك عبد العزيز وجهوده في توحيد المملكة العربية السعودية.
- جوانب من شخصية الملك عبد العزيز.
- توحيد المملكة وبناؤها في عهد الملك عبد العزيز.
- الجانب الإنساني في شخصية الملك عبد العزيز من خلال علاقته بأخته نوره.
- توفير المياه للرياض في عهد الملك عبد العزيز.
- الإدارة المحلية في عهد الملك عبد العزيز.

إلى غير ذلك من هذه الدراسات والبحوث القيّمة التي لا أشك أنها تكوّن سجلاً حافلاً، لم يسبق له مثيل، سوف يرجع إليه المؤرخون والباحثون مراراً لسنوات طويلة في المستقبل. ولا بد أن منظمي (مؤتمر المملكة العربية السعودية في مائة عام) قد وضعوا في حسابهم طباعة هذه الدراسات ونشرها. وكلها تستحق أن تقرأ بعمق وتمحيص.

لا يختلف اثنان أن الملك عبد العزيز رحمه الله، قد اجتمعت له، في طاقته الجسدية والعقلية والروحية، وحياته ونضاله ونجاحه في إنشاء دولة قوية موحدة عظيمة التأثير، من عناصر الفرقة والشتات والضعف، وانعكاسات شخصيته وانعكاسات دولته على امتداد تاريخها حتى اليوم ـ أقول إن هذا الإنسان الفذّ قد اجتمعت له العناصر جميعاً التي تتألف منها ملحمة إنسانية بطولية، في أعلى درجات الإنسانية والبطولة.

ولعله، رغم كثرة المؤرخين له، وهذه الدراسات الأخيرة عنه ـ وهي كلها جهد عظيم بلا شك ـ ما يزال ينتظر مؤرخاً مثل (إميل لودفج)، يملك دقة المؤرخ وصبره، وخيال الكاتب الروائي، يكتب عن الملك عبد العزيز، كما كتب (إميل لودفج) عن نابليون بونابرت.

كل ذلك التاريخ الـ Micro، عن نابليون. لم يعد يذكره أحد عدا المختصين، وبقي كتاب إميل لودفج يلهب خيال الناس جيلاً بعد بعد جيل.

كانت حياة الملك عبد العزيز ملحمة إنسانية. وذلك يعني بالضرورة أنها حياة مفعمة بـ «الرومانس».

بعض تلك الدراسات القيمة كان فيها شيء من ذلك الجانب الرومانسي. لكنني أشك أن أياً منها اقترب من تلك اللحظة البكر، حين كانت أشياء جسيمة توشك أن تولد، كما تجد في هذه الأبيات من أوبريت الأمير بدر بن عبد المحسن «فارس التوحيد»:

فوق أربعين وما لهم مثايل
كود الكواكب أو غوالي دررها
وحول أربعين وما حسبنا الصمايل
والقوم يحسب كثرها من ظفرها
تحزّموا بالله على كل عايل
ركبوا وحطّوا سهيل بيُسر ظهرها
وشقّوا الريادي والليالي حبايل
للموت والعدوان زايد خدرها

كـريم يـا بـرق الـسـيـوف الـصـقـايـل
فـي الـعـارض غـيـومـك تحـدد مـطـرهـا
غـطّـى عـلـى المصمـك عـجـاج المخـايـل
مـن قـبـل مـا تـرى الـصـواعـق شـررهـا

هل تذكر قول ذي الرمة:

فـقـلـتُ ضـعـي ضـوء الـكـواكـب كـلـهـا
يمـيناً وضـوء الـنـسـر مـن عـن شـمـالـك؟

هذا الضوء امتداد لذلك. والمكان هو نفسه. المساعي الإنسانية الضخمة تحتاج إلى التاريخ، نعم. ولكنها تحتاج أيضاً إلى شطحات أبعد من التاريخ.